سيرة ذاتية فكرية

الحبيب الجنحاني

سيرة ذاتية فكرية

الحبيب الجنحاني

سيرة ذاتية فكرية

تــونــس
2008

الكتاب : سيرة ذاتية فكرية

المؤلف: الدكتور الحبيب الجنحاني

الطبعة الأولى : تونس 2008

التصميم و الإخراج الفني : **المنجي الشابي**

ر.د.م.ك.: ISBN : 978 - 9973 - 0 - 0434-5

***

تم طبع وإنجاز هذا الكتاب في:

الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم

SOTEPA GRAPHIC

1، نهج محمد رشيد رضا . 1002 تونس

الهاتف: 380 904 71 / الفاكس: 313 900 71

تــقـــديــم

أتذكر الآن، وأنا أشرع في كتابة هـذا التقديم جملة الفيلسوف الانقليزي النمساوي الأصل كارل بوبر: "ماذا أترك، وماذا أبقي؟ هذه هي المسألة".

إنها حيرة ترتبط بالموضوعية، وترتبط قبل ذلك بتحديد الهدف: ماذا أروي، وماذا أحذف مما يزدحم في الذاكرة من أحداث؟

لا مناص إذن من الغربلة والانتقاء، وبعد تردد اخترت التلميح إلى الأحداث التي قد تسهم في توعية القارئ العربي بالقيم التالية:

- الثورة ضد جميع مظاهر الظلم السياسي والاجتماعي.
- التمسك بمبادئ العقلانية والحداثة، وأعني الحداثة المطلة علينا من عباءة عصر الأنوار.
- الإيمان بالحرية، والنضال في سبيلها حتى آخر رمق.

قد يبادر البعض قائلا: إنه حلم جديد يشبه الأحلام القديمة المتهاوية، ماذا تستطيع النصوص أن تؤثر في تحقيق هذه القيم؟

النصوص هي التي تنير السبل، وتبعث التفاؤل، وبخاصة عندما ينتشر الظلام، وتزحف الخفافيش من جحورها، إذ أن النصوص الهادفة ليست منعزلة عن بيئة أصحابها، وعن حيرتهم المؤرقة.

إن هذا النص هو سرد لذكريات معينة، وليس كتاب تاريخ، فمن الطبيعي أن تتداخل الأحداث لتتوالى أحيانا، وتتقطع أحيانا أخرى.

كان من الممكن أن يكون هذا النص أكثر تفصيلا، وأشمل في موضوعاته، ولكنه من النصوص التي تكتب في ظرفية تاريخية معينة، محاولة الكشف عن شيء ما.

إن التكفير عن الذنوب لا يحتمل التأجيل، إنه تكفير عن ذنب تأييد نظم سلطوية معادية للحريات العامة، إنه إسهام متواضع في إماطة اللثام عن الوجه الحقيقي لجلاوزة القرن العشرين.

ويندرج ضمن مسعى التكفير وضع صاحب النص تجربته النضالية في المجالين السياسي والنقابي تحت تصرف الأجيال الجديدة المناضلة في سبيل تنبيت قيم المواطنة، والحريات العامة في التربة العربية.

الحبيب الجنحاني

تـــونـــس، جـوان 2008

مرحلة النشأة

تأخر إلتحاق الفتى بالمرحلة الابتدائية للتعليم بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية، وقد تحولت البلاد التونسية إلى ساحة سخنة من ساحاتها بعد أن احتلها الألمان (خريف 1942- ربيع 1943) . لم يسمح هذا التأخر بالانتساب إلى المدارس الحديثة، إذ حال السن دون ذلك، وهي مدارس تابعة لإدارة التعليم العمومي الفرنسي، فلم يبق أمامه إلا باب وحيد هو باب التعليم الزيتوني التقليدي، وحدث ذلك أيام نضال طلبته من أجل تحديثه، وتطوير برامجه ليصبح منافسا للتعليم الذي تشرف عليه الإدارة الاستعمارية، وهو نضال عريق تعود جذوره إلى سنة 1910 لما نادى طلبته بالتحديث تأثرا بما حدث في مؤسسة الأزهر.

سعت الإدارة الاستعمارية منذ البداية إلى تنشئة جيل من المتعلمين التونسيين مؤيدا لها، ولا تتجاوز طموحاتهم العمل كمترجمين بالدرجة الأولى ضمن الإدارة الاستعمارية الجديدة، وقد فشلت في سعيها، كما أثبت ذلك تاريخ الحركة الوطنية التونسية.

لم يكن من مصلحة النظام الاستعماري أن تتحول الزيتونة إلى معقل من معاقل الفكر الجديد، ومن هنا جاءت معارضتها لحركات التجديد، ولابد من الإشارة إلى معارضة التيار المحافظ داخل الزيتونة نفسها، وبخاصة بعض أسر بورجوازية العاصمة، وقد مثلت الزيتونة مركزا خطير الشأن من مراكز نفوذها إلى جانب المحاكم الشرعية، ومؤسسة الديوان الشرعي.

عاش الفتى المرحلة الأخيرة من مراحل نضال الزيتونيين في سبيل تحديث نظامهم التربوي قبل إلغائه، وتوحيد التعليم غداة الاستقلال، وامتزجت هذه المرحلة

بالمعركة الحاسمة في تاريخ الحركة الوطنية من أجل الحرية والاستقلال (1952-1956)، ومن هنا التحم النضال الطلابي بالنضال الوطني.

كان لهذه المرحلة أثر بعيد المدى في الوعي السياسي للفتى، وفي اهتمامه بالشأن السياسي وطنيا في البداية، ثم عربيا وعالميا فيما بعد.

ونظرا لما تتميز به هذه الفترة من خطورة في تاريخ تونس المعاصر من جهة، ومن تأثيرها في رسم ملامح الدولة الوطنية من جهة أخرى ينبغي الوقوف عندها قليلا، فقد ألمعت إلى أن النظام التعليمي الزيتوني لم يكن يسمح بتنشئة تربوية حديثة تمتزج فيها الثقافة الوطنية بالثقافة العالمية عبر نوافذ اللغات الحية، وكان في طليعة الثائرين ضد هذا النظام الزيتونيون أنفسهم بدءا بالزعيم عبد العزيز الثعالبي في نهاية القرن التاسع عشر إلى أولئك الذين نزلوا إلى الشوارع في مطلع

خمسينات القرن الماضي، متحدّين رصاص السلطة الاستعمارية فتأسست في نهاية الأربعينات (1949/2/16) لجنة "صوت الطالب الزيتوني" للدفاع عن مطالب الزيتونيين، وتزامن تأسيسها مع مؤتمر ليلة القدر، ومع تأسيس الاتحاد العام التونسي للشغل (1946/1/20)، ومع بعث المنظمات الوطنية باعتبارها امتدادا للحركة السياسية الوطنية في مجال اختصاصها، وحظيت صوت الطالب بدعم قيادة الحركة الوطنية، واجتمع بها الزعيم الحبيب بورقيبة في شهر أوت (أغسطس) 1950 وبرأها من الإشاعات التي روجت حول قيادتها يومئذ، وأذكر ذلك اليوم المشهود الذي جاء فيه الزعيم صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الحر الدستوري التونسي الجديد إلى جامع الزيتونة، وخطب أمام الحشود الطلابية، قائلا: لو يشارك الحزب في حكومة تفاوضية فستتم عندئذ تلبية مطالبكم الستة عشر في أربع وعشرين ساعة، وهكذا جندت قيادة الحزب

الزيتونيين لإسقاط حكومة مصطفى الكعاك، وقد خطبت في الجماهير المتظاهرة أمام مقر الجندرمة الفرنسية بمدينة قليبية في ربيع عام 1950 متهما مصطفى الكعاك بالعمالة، ولم يتجاوز سني السادسة عشر، وعلقت بي تهمة ثلب الوزير الأكبر، وكان مصطفى الكعاك عميلا للإدارة الاستعمارية، ولما تم إسقاط حكومته تألفت في شهر أوت (أغسطس) الحكومة التفاوضية برئاسة محمد شنيق، وتولى فيها وزارة العدل صالح بن يوسف، وتفاءل الزيتونيون، وحسبوا أن مطالبهم ستأخذ بسرعة طريقها إلى التنفيذ، ولعلهم لم يدركوا يومئذ أن سلطة القرار لم تكن بيد الباي، أو حكومته التفاوضية، بل هي استمرت كالأمس بيد الفرنسيين، وهنا بدأ نضال الطلبة يتصاعد: اعتصام الجوع، إضراب عن الدراسة، مظاهرات بالشوارع، وبلغ التوتر أشده يوم الصراع الدموي بينهم وبين ميليشيا الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد أمام قصر الباي بقرطاج في عيد العرش

(ماي 1951)، وقمعت الميليشيا ليلة المعركة أمام قصر الباي مظاهرة طلابية حاولت الوصول إلى الحي الأوروبي عبر شوارع المدينة العربية، ومن المعروف أن التوتر بين الحزب وصوت الطالب قد بلغ أشده بعد رسالة الحبيب بورقيبة إلى صالح بن يوسف في 1951/5/24، أي عشرة أيام بعد أحداث قرطاج، ثم أسس الحزب منظمة زيتونية مناهضة لصوت الطالب هي "الكتلة للدفاع عن المطالب الزيتونية"، وقبل أحداث عيد العرش تظاهرنا أمام قصر الحكومة بالقصبة، واستطعنا اقتحامه، وحاصرنا الدكتور محمود الماطري في مكتبه يوم 1951/1/23، وكان وزيرا للدولة في الحكومة التفاوضية، وإليه يعود النظر في قضايا جامع الزيتونة.

وأرى من الضرورة هنا إبداء الملاحظتين التاليتين:

أ- روج الحزب إشاعات حول قيادة صوت الطالب، وأنها تحولت إلى نصل ناجع في أيدي شخصيات زيتونية مرموقة اتهمت بعلاقتها مع الإقامة العامة الفرنسية، ولا أدري حتى اليوم مدى صحة هذه الإشاعات؟ ولم تكشف وثائق، أو شهادات نزيهة عن مدى صحتها، أو بطلانها فيما اطلعت عليه؟

ب- عندما تقود قيادة وطنية ما معركة حاسمة ضد المحتل الأجنبي فإنها تكون حريصة على وحدة الصف الوطني، ولا تقبل أبدا الخروج عن السرب. هل كان تصدي قيادة الحزب لحركة صوت الطالب يندرج ضمن هذه الإستراتيجية الكلاسيكية المعروفة في تاريخ حركات التحرر الوطني، أو هناك أسباب أخرى خفية لم يمط عنها اللثام بعد؟

إنني حريص في نهاية هذه الفقرة عن ظروف النشأة على الإشارة إلى النقاط التالية:

أولا- قد لمحت إلى أن الظروف التاريخية التي عرفتها البلاد في مطلع أربعينات القرن الماضي قد حرمتني من الانتساب إلى مدارس النظام التربوي الحديث، وقد كان مزدوج اللغة، ولكنني أشعر اليوم بالارتياح قائلا: الحمد لله أن تلك الظروف قد حالت دون انخراطي فيه، وانتسابي نتيجة ذلك إلى النظام الزيتوني، إذ أن شعلة الثورة قد دبت في عروقي منذ البداية، الثورة على نظام قروسطي لا علاقة له بالحياة الحديثة، وقد حفزتني هذه الشعلة على الثورة، والإسهام في سن مبكرة في كل عمل ذي نفس ثوري وغاضب، فشاركت في إضرابات الجوع، وتظاهرت في الشوارع من أجل تحديث النظام التربوي الزيتوني، ثم مع السن والتجربة تحولت الثورة ضد الظلم السياسي، والحيف الاجتماعي، وبخاصة ضد ذهنية الانغلاق، ورفض الرأي المخالف، وضد الرداءة بشتى أصنافها، وهكذا أصبحت أعتز بانتسابي إلى فئة الثائرين من الزيتونيين، وفيهم الزعيم

السياسي ، والمجدد في مجال الفكر الإسلامي، وحامل لواء التجديد في تاريخ الأدب العربي الحديث.

إن بذرة الثورة التي غرسها في الشعور بعدم الرضا عن المنظومة التعليمية التي حشرتني فيها الصدفة جعلتني أساهم في العمل السياسي، وأشارك في مظاهرات صوت الطالب، وفي المظاهرات الوطنية مثل المظاهرة الشعبية التي خرجت من جامع الزيتونة متجهة إلى مقر الإقامة العامة الفرنسية مساء يوم 5 ديسمبر 1952 احتجاجا على اغتيال الزعيم النقابي المرحوم فرحات حشاد، بل انضممت في تلك الفترة المبكرة إلى مظاهرات اليسار التونسي فقد شاركت في مظاهرة لجنة الحرية والسلم بقيادة الدكتور سليمان بن سليمان، وحاصرتنا الشرطة أمام القنصلية البريطانية في مدخل المدينة العربية.

إن تلك البذرة هي جعلتني ألتهم الكتب ذات النفس الثوري، فقد نشرت عام 1954 في جريدة "الصباح" مقالات تحليلية لكتابي خالد محمد خالد "من هنا نبدأ"، و"الديمقراطية أبدا"، وقد كان لهما صدى بعيد المدى في الوطن العربي يومئذ.

إن الشعور بالتحدي جعلني أبحث عن منافذ الهجرة إلى الشمال لأنهل من منابع الفكر الحديث، وأسد ثغرات التعليم الزيتوني، وقد تعددت الهجرات شرقا وغربا فأثرت تجاربي الإنسانية والفكرية، وتعرفت إلى أسس ثقافة جديدة متعددة المشارب والمدارس، وبخاصة لما تلاقحت الثقافة الفرنسية بجارتها الثقافة الجرمانية. إن اللغة الألمانية مثلت دعامة صلبة ليس في ميدان اختصاصي الأكاديمي البحت: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمجتمع العربي الإسلامي، وإنما كذلك في التعرف مباشرة إلى الفكر الفلسفي الألماني، فهي التي

مكنتني من قراءة نصوص ماركس، ومن الاطلاع على أدبيات مدرسة فرانكفورت.

ثانيا- إن شعوري بماضوية التعليم الزيتوني منهجا ومحتوى جعلتني أبحث في السنوات الأولى عن مناهل أخرى متصلة بثقافة العصر، وهنا برز تأثير مؤسسة "الخلدونية" في ظروف النشأة، فقد ترددت بانتظام إلى جانب الدروس النظامية، على محاضرات رئيسها الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور وقد فتحت عيوننا على علاقة بلادنا بالبعد العربي الإسلامي، وسمعنا لأول مرة بأسماء شهيرة لرواد الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي مثل سراج الهند الدهلوي (1746-1824)، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وترددت في محاضراته مفاهيم جديدة بالنسبة إلى جيلنا مثل مفهوم "الجامعة الإسلامية"، ومفهوم "العروبة" و "القومية العربية"، ولما تحدث عن اتجاه الحركة

الوطنية، وقد كان من أبرز رجالها، وصفها بأنها ذو وجهة قومية إسلامية خالصة، كما استعمل مفهومي العدل والحرية، وهما مفهومان أساسيان في كتاب "أقوم المسالك"مشيدا بإصلاحات مؤلفه خير الدين.

إن الفتى مدين له فقد قربه وشجعه، وتعلم منه فن الخطابة، وأسلوب الجدل ، ومدين كذلك للمرحومين حسن حسني عبد الوهاب، وعثمان الكعاك في شغفه بتراث الحضارة العربية الإسلامية، فقد تعرف في المجلس المسائي اليومي للمرحوم حسن حسني عبد الوهاب إلى عدد من زواره من كبار المستشرقين، ومن مثقفي المشرق العربي مثل خير الدين الزركلي الدمشقي، وصلاح الدين المنجد الدمشقي أيضا، وتعلم من الأستاذ الكعاك أسلوب البحث في المراجع الأجنبية المتخصصة في الحضارة الإسلامية، فقد سمع منه لأول مرة في مكتبة العطارين (المكتبة الوطنية اليوم) بدائرة

المعارف الإسلامية، وبتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان، وقد شجعه هذا الأفق الجديد على تأليف كتاب عن المقري صاحب نفح الطيب، ولم يبلغ بعد سن العشرين، واعتمد عليه طلبة شهادة "التحصيل"، إذ أن المقري كان من الشخصيات الأدبية المقررة يومئذ.

****

إن علاقة الفتى بهذه البيئة التراثية فتحت له أبواب التخصص في المخطوطات، وفن المكتبات، وعهد إليه بعمل متواضع في هذا المجال، وهو ما رشحه لبعثة فنية تدريبية إلى المكتبة الوطنية، ودار الوثائق الوطنية بباريس، ثم بعثة ثانية إلى دار الكتب الوطنية، ومعهد المخطوطات التابع للجامعة العربية يومئذ بالقاهرة.

إن علاقة الفتى بهذا الوسط الثقافي ذي البعد التراثي لم ينسه أبدا الاهتمام بالشأن السياسي، ويعود الفضل في ذلك إلى مرحلة الصراع بين الحزب الحر

التونسي الجديد وصوت الطالب الزيتوني من جهة، وإلى مجالس المناضل الكبير المرحوم محي الدين القليبي في المرسى، أو في مدينة قليبية في فصل الصيف من جهة أخرى.

ثالثا- إن الحديث عن ماضوية النظام التربوي الزيتوني، والثورة عليه من أبناء الزيتونة أنفسهم ينبغي ألا يحجب علينا نبل الرسالة الوطنية لهذه المؤسسة العريقة والمتمثلة أساسا في الذود عن الهوية الحضارية للشعب التونسي، فقد تزعم طلبة الزيتونة حركة تفكيك تمثال الكردينال "لافيجيري" (Cardinal Lavigerie) الذي أقامه الاستعمار الفرنسي حاملا الصليب، ومتجها للمدينة العربية، رامزا بذلك للحركة التبشيرية، وقد تزعمها في الجزائر، وفي القارة الإفريقية لما أسس حركة الأباء البيض، وقد تصدوا للحملة الصليبية السافرة

لما استفز الاستعمار الفرنسي شعور التونسيين، وسمح بتنظيم المؤتمر الافخاريستي عام 1930.

إنه من المعروف أن الهوية العربية الإسلامية للشعب التونسي مثلت الركيزة الأساسية لحركة التحرر الوطني، وقد تجاوز هذا الدور الحدود التونسية ليغذوا مؤسسات المجتمع المدني الذائدة عن هوية الشعب الجزائري العربي المسلم، فقد تخرج عدد كبير من قادة الثورة الجزائرية من الزيتونة، وبقوا مشيدين بدورها في إذكاء شعلة هوية الشعب الجزائري الشقيق، ويكفي التذكير هنا بأن مؤسس "جمعية العلماء المسلمين بالجزائر" عبد الحميد بن باديس (1887-1940) قد تخرج من جامع الزيتونة، وأفاد من تيار الفكر الإصلاحي المستنير الذي عرف به بعض شيوخه.

لا يمكن الحديث عن التعليم الزيتوني دون الوقوف عما آل إليه غداة الاستقلال.

إن للزعيم الحبيب بورقيبة مثالب كثيرة بدأت تكشف عنها بعض الدراسات الموضوعية التي نشرت بعد رحيله، وفاجأتنا أبناء الجيل الذي سانده، وتحمس لإصلاحاته، ولكن المفاجأة لم تجعل الشجرة تحجب عنا الغابة، فلكل الزعماء الكبار أخطاء تبلغ حد المساوئ في حالات معينة، فهم بشر يصيبون ويخطئون، ولكن الذي يحز في نفوس من هتفوا باسمه طويلا عندما يقرؤون اليوم نصوصا وشهادات صادرة عن حوارييه، وقد عرفوه من كثب، شهادات يصعب علينا أبناء ذلك الجيل الذي تحمس "للمجاهد الأكبر" تصديقها، فقد استغربنا ونحن نقرأ الدراسات الجديدة:

كيف شرع ذلك الزعيم الكبير الذي درس الحقوق فوق مقاعد جامعة السربون لأساليب التعذيب في تاريخ الدولة الوطنية الحديثة، وأسس المحاكم الاستثنائية لمحاكمة المختلفين معه في الرأي، وكيف غذى عاشق

أوغست كونت، وروسو، وفولتير النعرة الجهوية في صفوف شعب حلم طويلا أن تغرس الدولة الوطنية الحديثة قيم المواطنة.

هنالك إشكالية كبرى قد حان الوقت لدراستها بكل موضوعية، وأعني بورقيبة الزعيم، وبورقيبة الحاكم بأمره، ومهما عددنا هنات الزعيم الكبير فيكفيه فخرا أمران:

- تحرير المرأة.
- إدراكه لأهمية الرهان على نشر التعليم.

وله مأثرة أخرى لا يوليها الناس ما تستحقه من عناية، ألا وهي حذف المحاكم الشرعية، وتوحيد التعليم بإلغائه التعليم الزيتوني.

ومما يدعو إلى الاستغراب، ويبعث على الريبة أن بعض المسؤولين المقربين من بورقيبة، بل هو ولي

نعمهم، بل قل يعدون من مواليه أصبحوا اليوم يتباكون على إلغاء التعليم الزيتوني، ولم نسمع لهم رأيا لا في هذه المسألة، ولا في مسائل أخرى لما كان بورقيبة ماسكا بزمام السلطة، بل كتب بعضهم قائلا: صلح الدهر للزيتونة!!

إن الويلات التي أفرزها التعليم الأصلي في الجزائر(كان نسخة من الزيتونة) أصبحت معروفة اليوم.

لو لم يلغ التعليم الزيتوني لاستمرت الثنائية المقيتة داخل صفوف النخبة التونسية، وإذا انصهرت هذه الثنائية، وتوارى خطرها في مرحلة التحرر الوطني، فقد كان متوقعا أن تطل برأسها غداة الاستقلال، ويستمر "جهاز البلاد الثقافي مشطورا دائما إلى شطرين"، كما وصف الشيخ الفاضل ابن عاشور الوضع الثقافي قبل الاستقلال.

إن نرجسية الزعيم بورقيبة، وحرصه على تصفية حسابات قديمة مع الزيتونة منعته من التفكير في تسمية الجامعة التونسية الحديثة "الجامعة الزيتونية"، ويؤسس ضمنها مركزا مرموقا للدراسات الإسلامية يتخرج منه حسب المناهج الحديثة كبار المختصين والمجتهدين في قضايا الإسلام، ويسد الفراغ الذي تعاني منه البلاد اليوم، وبذلك تكون سياسة التحديث قد ارتبطت بسند تاريخي أشع طوال حقب من الزمان على المغرب العربي، والعالم الإسلامي كله.

إن إلغاء التعليم الزيتوني لا يقل شأنا عن قرار تحرير المرأة، وسياسة نشر التعليم.

رابعا- لما عادت بي الذاكرة إلى مرحلة النشأة، وإسهامي أثناءها في أحداث وطنية بارزة، وما عرفته يومئذ من مغامرات مرحلة الشباب تذكرت ما كتبته في نقدي للمذكرات الرائعة التي نشرها المفكر الفلسطيني

الشهير إدوارد سعيد قبيل رحيله، مندداً بما عاشه من حياة مترفة، ولكنها مخططة من الأبوين بدقة، وخاضعة لتربية مسيحية صارمة، فكان الحديث عن الجنس كبيرة لا تغتفر، ولما سأل، وهو في بداية العقد الثالث عن كيفية ولادة الأطفال جاء جواب الأم بنت القسيس الانجيلي "كتبنا رسالة إلى يسوع فبعث إلينا بطفل".

تذكرت الفقرة التي علقت بها على وصفه لأسلوب حياته أيام النشأة، غاضبا، ثائرا كتبت:

"لا شك أن كثيرا من المثقفين العرب البارزين من جيل إدوارد سعيد، والذين عاشوا في أحياء شعبية، وشاركوا في مظاهرات حركات التحرر الوطني العربية، وهم في سن المراهقة، ومارسوا تجاربهم الجنسية الأولى في مخادع بعض المراودات من نساء الحي اللواتي لم يستطع الزوج اللاهث وراء لقمة العيش إطفاء جذوة الشبق فيهن، يشعرون اليوم بالنخوة، وهم يقرأون هذه

الفقرات من مذكراته، ويحمدون الله أنهم لم ينحدروا من أسر ارستقراطية، ولسان حالهم يقول: تبا لعيش رضي مترف، وما وفره في سن المراهقة من تنس، وركوب خيل، وعزف على البيانو إذا كان الثمن الحيلولة دون مشاركة الشعب انتفاضته ضد المحتل، أو المعاناة من عقد الالتحام بالجنس الثاني، أو التقميط قسرا في مطلع العقد الثالث من العمر".

الهجرة الأولى

بدأ الفتى يعمل موظفا صغيرا في حقل المكتبات، ولم يعرف من رشحه لوزير التربية في حكومة الاستقلال المرحوم الأمين الشابي، شقيق الشاعر الشهير "أبو القاسم الشابي" فأرسله في بعثة تدريبية إلى المكتبة الوطنية، وإدارة الوثائق العامة بباريس، فركب السفينة في اتجاه مدينة مرسيليا، وهو نفس الطريق الذي عبره الطلبة التونسيون للدراسة في فرنسا منذ البعثة الأولى التي اختارها خير الدين من بين تلامذة المدرسة الصادقية ليتموا دراستهم، ثم يعودوا لمساعدته في تنفيذ البرنامج الحلم: تحديث البلاد، ولكن سرعان ما سقط الحلم، واحتل الاستعمار الفرنسي البلاد، وقد كان ضمن بعثة المدرسة الصادقية عدد من زعماء حركة الشباب

التونسي الذين قادوا الحركة الوطنية في مرحلتها الأولى مثل البشير صفر، وعلي باش حانبة.

وهكذا بعد سنوات قليلة من النضال الوطني الطلابي وجد الفتى نفسه بين ركاب الدرجة الثالثة على ظهر سفينة تمخر البحر في اتجاه ميناء مرسيليا، وتبدأ مع ذلك الهجرة الأولى خارج الوطن، وقد كانت إلى بلد رأسمالي عريق من بلدان أوروبا الغربية، أو بلدان العالم الحر، كما كانت تسمى أيام الحرب الباردة.

كان الانبهار كبيرا، والصدمة الحضارية عنيفة، إذ انتقل الفتى بين عشية وضحاها من قلب مدينة عربية إسلامية بأسواقها التي هي امتداد لأسواق المدينة العربية في العصر الوسيط، وبمؤسساتها التعليمية التقليدية إلى مدينة النور: باريس، وسرعان ما نسي المساجد، وحلقات القراء لتعوضها مقاهى الحي اللاتيني نهارا،

ونوادي موسيقى الجاز بكهوف الحي الباريسي الشهير: سان جرمان الذي ما تزال تفوح فيه روائح الوجودية.

ولم يذهب به الانزلاق بعيدا فلم يهمل أمرين أساسيين: التردد على مناهل المعرفة، والعمل السياسي، وقد هيمنت الثورة الجزائرية في منتصف الخمسينات على المنابر السياسية الباريسية بشتى تياراتها، وتزامن ذلك مع العدوان الثلاثي على مصر، وتحول المطعم الجامعي الخاص بطلبة المغرب العربي، بشارع سان ميشال رقم 115 إلى منتدى سياسي كبير تخرج منه عدد كبير من رجال السياسة، وبناة الدولة الوطنية في الأقطار المغاربية غداة استقلالها، وأصبح رقم 115 يرمز بالنسبة لأبناء المغرب العربي إلى مدرسة سياسية خطيرة الشأن طوال معارك التحرر الوطني، وتمحور الصراع الايديولوجي السياسي من أعلى منبر هذه المدرسة حول تيارين أساسيين:

التيار الوطني، والتيار الوطني اليساري، وهو تيار ربط بين حركات التحرر الوطني العربية وبين حركات التحرر في العالم من جهة، والنضال ضد الهيمنة الامبريالية، وفي سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية من جهة أخرى، وجاء مؤتمر باندونغ سنة 1955 ليعلن ميلاد حركة التضامن بين شعوب العالم الثالث.

اكتشف الفتى الزيتوني في باريس أنه كان ثائرا تحت العمامة لما انخرط في حركة النضال الوطني الطلابي في سن مبكرة فشارك في المظاهرات من أجل تحديث التعليم الزيتوني، وضد النظام الاستعماري الفرنسي، إذ وجد نفسه شغوفا بحركات اليسار الفرنسي دون أن يدرك يومئذ الفروق بينها، وأن يعرف موقفها من حركات التحرر الوطني، وبخاصة موقفها من الثورة الجزائرية، ومن القضية الفلسطينية.

كان لهذه الهجرة الأولى أثر بعيد المدى في نفس الفتى، وأصبح يتردد على مراتع باريس كلما سنحت فرصة لزيارتها، متخيلا أولئك الذين سبقوه، وارتادوا نفس الأماكن بدءا بفرنسيس مراش (1836-1873)، ورفاعة رافع الطهطاوي (1801-1873)، وخير الدين التونسي (1810-1890)، وأحمد فارس الشدياق (1804-1887)، وجمال الذين الأفغاني (1849-1902)، وأديب اسحق (1856-1885)، وفي مرحلة لاحقة زكي مبارك، وتوفيق الحكيم، وطه حسين، وكان يتذكر بصفة خاصة ذلك الشيخ الذي يتجول في باريس بعمامته الزيتونية، ويتحاور مع سيده وصديقه أحمد باي، وهما يتجولان في شارع الشانزيليزي عام 1846 متحاورين حول مفهوم الحرية، وقد تجاوز الشعور بالحرية، والأمان من الظلم لدى هذا الشيخ الزيتوني المستنير حدود الوطن، وما ارتبط به من هوية منغلقة،

متمنيا أن تمتزج الأنا بهوية الآخر ليتنفس هواء الحرية في وطنه.

وتذكر الفتى في تردده على مكتبة مدرسة اللغات الشرقية شيخا آخر مستنيرا عكف على تدارك ثغرات ثقافته الأزهرية بين جدران هذه المكتبة، وأعني بذلك رفاعة الطهطاوي الذي حرص على تأليف رحلته "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" ليقدم للرأي العام العربي الإسلامي مظاهر التقدم في الغرب، وبخاصة في المجال السياسي فأسهب الحديث عن الفكر الديمقراطي للبورجوازية الفرنسية، وترجم دستورها، وهو موقف غير مباشر للتنديد بالحكم المطلق الاستبدادي الذي كان، وما يزال مسيطرا في العالم العربي الإسلامي. لما صدرت الطبعة الثانية من كتابه "مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية" (1912) كتب الشيخ عبد الكريم سليمان رئيس تفتيش المحاكم الشرعية

بنظارة الحقانية قائلا: "وأنه (يعني الطهطاوي) الرجل الذي ألقى بالبلاد الغربية عصا التسيار أعواما طوالا وقف فيها على أسباب التقدم وأسرار الارتقاء، ثم عاد ومصباح الغرب بإحدى يديه، ومفتاح الشرق باليد الأخرى".

إن من يدقق النظر في نصوص رحلات رواد الحركات الإصلاحية يدرك في يسر الغاية الأساسية من كتابتها، أي أنهم هدفوا إلى التعريف بأوجه التقدم في الغرب، محذرين من الخلط بين الوجه الاستعماري البشع الذي قاوموه في الداخل منذ الحملة الفرنسية وبين وجه التقدم السياسي والاقتصادي والعلمي، فليس من الصدفة أن يقف خير الدين في كتابه "أقوم المسالك" عند مفهوم الحرية طويلا، موضحا أن توفر الحريات العامة يمثل الدعامة الصلبة لتقدم الغرب، فقد تفطن بحكم الممارسة أن التقدم والتحديث لا يستقيمان بدون حرية حقيقية.

تطرح نفسها في هذا السياق فكرة محورية ما تزال حرية بالمزيد من البحث والتدقيق انطلاقا من نصوص الرحالة العرب، وأعني وعي الشرق لنفسه من خلال تصور الغرب له، وكذلك وعي الشرق لنفسه عبر تعرف أبنائه إلى تجارب الآخر.

يتذكر الفتى أسماء هؤلاء الرواد، وما رموا إليه من وراء كتاباتهم عن الغرب كلما ارتاد الأماكن التي تجولوا في شوارعها، ويتذكر في الوقت ذاته أصدقاء أذكياء ابتلعتهم باريس، وكاد أن يكون من بينهم، فباريس هي مدينة النور، ولكنها هي أيضا مدينة النار، فكثير ممن أقام فيها احترق، وآخرون أضاءوا.

كاد الفتى أن يكون في زمرة الغرقى، إذ أنه انتقل من النقيض إلى النقيض دون مقدمات من حي الحلفاوين، والأزقة المجاورة لجامع الزيتونة إلى الحي اللاتيني، وسان جرمان، ومونبرناص، ولم يتقمص الغلاف

الأوروبي شكلا، وبقي فيه شيء من التزمت الزيتوني، بل إن ثورته على التعليم الزيتوني، وما ارتبط به من قيم بالية جعلته يغرق إلى الأذقان في أحياء باريس المرحة، فهو لم يكن من طينة أحمد الصاوي محمد الذي سافر إلى باريس (1927) على نفقة هدى هانم شعراوي فقال عنه مصطفى أمين: "إنه كان صعيديا في غلاف أوروبي، فقد كان متحررا فيما يكتب، متزمتا في بيته".

****

شرع الفتى في القيام بعمله في المكتبة الوطنية، وتتلمذ في مجال فهرسة الكتب العربية بالحروف اللاتينية على المستشرق المعروف مكسيم رودنسون، وكان مسؤولا على القسم العربي، ولم يعرف يومئذ الدور الكبير لقاعة المطالعة الكبرى في تاريخ الفكر الفرنسي الحديث، فكان يمر منها، ويرى روادها أمام الكتب المتناثرة وهم يعملون في صمت، وكأنهم في صلاة، وكلما تكلم ليسأل

المشرفين عليها قيل له: تكلم بهمس، ومن عاش في صخب المدارس الزيتونية، واجتماعات صوت الطالب لا يتعلم الكلام همسا بسهولة.

اكتشف في زيارات لاحقة أن أولئك الرواد هم كبار المثقفين الذين أثروا تأثيرا بعيد المدى في الثقافة الفرنسية والعالمية في النصف الثاني من القرن العشرين، وكانوا ينعتون بـ "أطفال المكتبة الوطنية"، فهم يأتون قبل أن تفتح القاعة، ويغادرونها بعد عشر ساعات من العمل عندما يدق جرس الإغلاق.

كان عمله موزعا بين المكتبة الوطنية ومكتبة مدرسة اللغات الشرقية، وفيها تعرف إلى الكاتب التونسي فريد غازي.

كان الفتى متلهفا لتدارك الثغرات في دراسته بالزيتونة فانتسب للمعهد الكاثوليكي بباريس، وللرابطة الفرنسية، وحاول أن يتعرف إلى مدرسة الاستشراق الفرنسية لعلها تيسر له الانتساب إلى السربون، أو إلى معهد اللغات الشرقية فزار المستشرق الكبير لوي ماسينيون (L.MASSIGNON 1883-1962) في منزله، ولم يفد منه كثيرا، إذ كان متقدما في السن، ملازما بيته، كان ماسينيون يؤمن بأولوية الحل الثقافي في الصراع بين الغرب والشرق، ونظر لذلك في مقالته المنشورة عام 1952، ولكن أحداث النصف الثاني من القرن العشرين قد برهنت بوضوح أن الحل لا يكون إلا سياسيا، ويمكن للثقافة أن تساعد عندما تصدق النوايا.

إن "سوسة" السياسة التي نخرت عظام الفتى في سن مبكرة في خضم الأحداث الطلابية والوطنية في مطلع خمسينات القرن الماضي لم تسمح له بالانصراف كليا إلى

التعلم والتثقف، فقد انشغل في باريس بقضايا الوطن الصغير، والوطن الكبير، فقد كانت أخبار الثورة الجزائرية مسيطرة على أبناء المغرب العربي، بل هي مسيطرة يوميا على الرأي العام الفرنسي نفسه رغم محاولات التعتيم الإعلامي، وتزامن ذلك مع الاعتداء الثلاثي على مصر (أكتوبر 1956)، ولكن هيام الفتى بمعقلين من معاقل الثقافة والفنون في باريس: سان جرمان، ومونبرناس إلى جانب تسكعه اليومي بالحي اللاتيني جعله يكتشف أهمية توفر مناخ الحرية في ازدهار الفكر والثقافة، وتعدد مدارسهما.

انتهت مجالس تحلق أنصار الوجودية حول زعيمها سارتر، وصديقته سيمون دوبفوار في مقاهي سان جرمان، وبخاصة مقهى "فلور"، ولكن غياب شيخ الحلقة لم يمنع المريدين من مواصلة ارتياد نفس الأماكن، فقد وجد الفتى الكاتبة الفرنسية الشهيرة فرانسوازساغان ذات

يوم جالسة تكتب في مقهى نابليون المحاذي لسكن سارتر قبل مغادرته الحي إثر انفجار قنبلة أمام منزله نظرا لمواقفه المؤيدة لثورة الشعب الجزائري، وأصبحت سنة 1956 مشهورة رغم صغر سنها، وذلك بعد صدور روايتها الأولى"صباح الخير أيها الحزن" (Bonjour tristesse)عام 1954 (كان سنها يومئذ 18 عاما).

كم مرة أتساءل، وأنا أقرأ عما عاشته تلك الأحياء من ثورة ثقافية في نهاية الأربعينات: كيف كان تأثيرها في التونسيين الذين انتسبوا يومئذ إلى الجامعة الفرنسية؟

لم أعثر على أثر يذكر فيما قرأته من نصوص البعض منهم، هل الانكباب على نيل الشهادة للعودة بسرعة إلى الوطن، والانتساب إلى سلك الموظفين قد حال دون ذلك؟ أم أن تخصص جل من كتب منهم بعد ذلك اقتصر على اللغة والآداب العربية جعلهم أقرب إلى

المدرسة الاستشراقية، وهي محافظة في جل الحالات منهم إلى الحركة الفكرية ذات الطابع الاحتجاجي يومئذ.

وعندما أعود بالذاكرة اليوم إلى ظروف الهجرة الأولى أكتشف أن ما تعلمه الفتى في مقاهي باريس ونواديها أكثر مما لقن فوق مقاعد الدراسة، ولم يندم في مرحلة النضج على ذلك.

****

أثرت الهجرة الأولى تأثيرا بعيد المدى في الرؤية الفكرية للفتى في مراحل لاحقة، وشاءت الصدفة أن تقترن بهجرة من نوع آخر أضفت بعدا فكريا آخر متنافسا، بل قل متصارعا مع بعد الفكر الغربي الليبرالي، فقد شاءت الصدف أن يرشح الفتى ليكون ضمن وفد طلابي يزور الاتحاد السوفياتي بدعوة من شبيبة الحزب الشيوعي السوفياتي (الكومسومول)، والترشيح لم يكن بريئا، بل جاء من جناح اليسار ضمن فرع الاتحاد العام

لطلبة تونس بباريس، ولعل أصحابه قد أملوا أن يكون ذلك خطوة أولى نحو كسب الفتى ليتحول من مناضل في صفوف الزيتونيين يتسكع بين مقهى القشاشين، ومقهى نهج الديوان بالمدينة القديمة إلى مناضل في صفوف حلقات الماركسيين بمقاهي الحي اللاتيني، فهل نجحوا في ذلك؟ ربما، ولكن الإشكالية أشد تعقيدا، وأكثر تشعبا من الإجابة عنها في جمل معدودات، فقد يتضح الأمر في الحديث عن الهجرة الثالثة.

****

ركب الفتى القطار ضمن وفد الاتحاد العام لطلبة تونس متجها إلى موسكو تلبية لدعوة منظمة "الكومسومول".

كان الاستقبال رائعا، وكان كل شيء مخططا بدقة وهو أمر مرتبط بطبيعة النظام السياسي القائم، ومما أبهره وأبهر بقية الوفد، ذلك الاهتمام الكبير بالثقافة والفنون فقد عاشوا ذلك عن كثب في السهرات الفنية التي ترددوا عليها، كما لمسوا ما يحظى به الشباب من رعاية، وهي جوانب القوة في نظم المعسكر الشرقي، وفهم الفتى في ما بعد أن هذه السياسة تمثل دعامة صلبة من دعائم الايديولوجيا التي يقوم عليها النظام، وكان الانبهار كذلك شديدا، لما زار الوفد بعض الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي: أذريبيجان، ويوزبكستان لما لمسه من مخططات دقيقة للقضاء على الأمية ونشر التعليم والثقافة ليس في المدن الكبرى فقط، بل أيضا في القرى والأرياف.

وحالت الإحاطة الكاملة بالوفد ومراقبة كل الخطوات الاستماع إلى نقد، أو تململ في صفوف السكان، وفهم الفتى فيما بعد أن الاختلاط بهم أمر يكاد يكون مستحيلا، ولعله من المفيد في هذا الصدد الإشارة إلى أن هذه الزيارة قد جاءت بعد شهور قليلة من المؤتمر المشهور في تاريخ الحزب الشيوعي السوفياتي: المؤتمر العشرون (فيفري 1956)، وقد ندد فيه خرتشوف بجرائم ستالين والإبادة الجماعية، ونزل كالصاعقة على الحاضرين، ثم على قادة الأحزاب الشيوعية أولا، وعلى قواعدها فيما بعد، وأحدث هزة عنيفة داخل الاتحاد السوفياتي، وفي كامل المعسكر الشرقي، وبقي التقرير الذي قدمه خرتشوف في المؤتمر سرا، ولم يرسل إلا إلى قادة الأحزاب الشيوعية الحاكمة في بلدان المعسكر الشرقي، وظفرت "الموساد" بالتقرير عن طريق أحد المسؤولين في قيادة حزب العمال البولندي، وبعد أن اطلع عليه ابن غوريون أرسله إلى الرئيس الأميركي ازنهاور،

وتم نشره يوم 6 جوان 1956 في "نيويورك تايمز"، ثم جريدة "لومند".

لم يسمع الفتى أثناء هذه الزيارة حديثا عن محتوى هذا التقرير، وعن أبعاده، بل سمع مجرد همس لم يفهم منه شيئا نظرا لصغر سنه، وفي طريق العودة من موسكو إلى باريس نزل الفتى في مدينة فرصوفيا، وكانت تهزها أحداث كبرى عرف خفاياها في زيارة ثانية بعد سبع سنوات من الزيارة الأولى فقد وجد نفسه ذات مساء ضمن مظاهرة عمالية حاشدة، رفع المشاركون فيها الأعلام الحمراء وصور كوملكا الأمين العام للحزب العمالي البولندي، وهو من ضحايا ستالين وسجن في عهده سنوات طويلة، وعاد إلى قيادة الحزب بعد المؤتمر العشرين، وكانت تلك المظاهرات مؤيدة له، وهو من قادة المعسكر الاشتراكي القلائل الذين عرفوا بالاعتدال، وقبول مبدأ الإصلاح.

لم أدرك خلفية تلك الأحداث التي كنت شاهد عيان عليها إلا بعد قراءتي للوثائق الرسمية التي أفرج عنها غداة سقوط الاتحاد السوفياتي.

أمر خرتشوف بالاجتياح العسكري لبولندا، وتحركت دبابات الجيش الأحمر تجاه الحدود البولندية، ثم نزلت طائرته فجأة في فرصوفيا، ودون اتفاق مسبق مع المسؤولين البولنديين فاجتمع بكوملكا، وكان اجتماعا متوترا هدد فيه كوملكا بإعطاء الأمر إلى الجيش، وإلى الشعب لمقاومة دخول الجيش الأحمر إن لم يصدر خرتشوف أوامره بوقف الزحف، وفي النهاية أمر خورتشوف بوقف الزحف مقابل التزام بولندا بالبقاء عضوا في حلف فرصوفيا.

وأدرك الفتى فيما بعد أن التحام الجيش مع الشعب ضد الهيمنة السوفياتية له خلفية تاريخية تعود إلى الماضي السحيق، وبخاصة تلك التي ما زال الناس يتناقلون

أخبارها، وهي المعركة التي أباد فيها النازيون المقاومة البولندية في إحدى معاركها والجيش الأحمر يتفرج على مرمى حجر منها دون أن يتدخل، وكذلك إعدام ستالين لعدد كبير من الجيش البولندي. أدركت القيادة السوفياتية أن هذه الانتفاضة قد تؤدي إلى سقوط النظم في بلدان المعسكر الشرقي، فبعد بولونيا يأتي دور ألمانيا الشرقية، وعندئذ يصبح الحلف الأطلسي على الحدود السوفياتية.

ولا بد من التذكير في هذا الصدد بانتفاضة عمال برلين الشرقية 1953 قبل ثلاث سنوات فقط من انتفاضتي الشعبين البولندي والمجري، وقد احتل الجيش الأحمر شوارع برلين أسابيع طويلة.

وصل الفتى إلى برلين الشرقية أربع سنوات بعد انتفاضة عمالها، ولكنه لم يسمع عنها شيئا، وبعث فيه ذلك التساؤل والاستغراب، ولكنه أدرك في سنوات النضج دقة وسائل التعتيم والإخفاء في النظم الاستبدادية، فبالرغم من

تطور وسائل الاتصال الحديثة، فهنالك أحداث كثيرة تقع في بلدان العالم الثالث، وفي مقدمتها بعض البلدان العربية، ولم يسمع سكانها شيئا يذكر، فتلك هي سمة من سمات جمهوريات الصمت.

إن الهزة العنيفة التي أحدثها المؤتمر العشرون قد تزامنت مع أحداث جسام في تلك المرحلة، من أبرزها انتفاضة الشعب البولوني، وبعد أيام قليلة انتفاضة الشعب المجري، واجتياح الجيش الأحمر لمدينة بودابست، وقد شهد الفتى آثار التدمير عندما زار المدينة بعد سنوات قليلة، كما تزامنت مع الاعتداء الثلاثي على مصر (أكتوبر 1956)، والنتائج الأولى الكبرى التي حققتها ثورة الشعب الجزائري الشقيق.

كل هذه الأحداث تركت تأثيرا بعيد المدى في المسيرة السياسية والفكرية للفتى، ولكن انغماسه فيها لم يحل بينه وبين مواصلة الاهتمام بالشأن الثقافي فقد نزل

في طريق العودة إلى باريس في ألمانيا، وزار المدينة الجامعية "توبينغن" ليطلع على المخطوطات العربية في مكتبتها.

ومن المعروف أن النازيين قد نقلوا في آخر سنوات الحرب العالمية الثانية قسما من مخطوطات المكتبة الوطنية ببرلين إلى مكتبات مدن جامعية صغيرة، منها مكتبة "توبنغن" خوفا من أن يصيبها القصف.

وكانت فرصة لزيارة المستشرق الألماني الشهير"هارتمان"، وهو من تلاميذ المستشرق الألماني "تيودور نولديكه" (1836-1930)، وكان هارتمان، يتقن العربية، ودرّس بكلية الآداب بجامعة القاهرة، وأفدت منه في التعرف إلى بعض جوانب المدرسة الاستشراقية الألمانية.

الـهـجـرة الثانية

الهجرة الثانية لم تكن نحو الشمال، بل كانت نحو المشرق العربي، وبالتحديد نحو مصر، وقد جاءت مرتبطة بالأولى فبعد الاطلاع على مناهج فن المكتبات في الغرب تقرر إرسال الفتى في بعثة تدريبية إلى كل من دار الكتب، ومعهد المخطوطات بالجامعة العربية، وكان المشرف على إدارتها الثقافية يومئذ طـــه حسين، وقد فوت صغر السن على الفتى السعي إلى مقابلته، والتحدث إليه.

كانت إمكانات الدولة التونسية الفتية محدودة فلم يمنح الفتى تذكرة سفر بالطائرة، فاضطر إلى السفر برا، وكان ممتعا، ومفيدا فقد عاش أجواء مدينة طرابلس ذات النمط المعيشي الايطالي يومئذ، وعبر الصحراء الليبية

الكبرى، وقد تمنى أن تسنح يوما ما فرصة بالتعرف على الطبيعة إلى المسلك الذي سلكته الجيوش العربية الفاتحة لبلاد المغرب، ولكن توتر العلاقات بين مصر الناصرية والنظام الملكي الليبي الخاضع للحماية البريطانية الأمريكية قد حال دون ذلك، فقد سمع الفتى بوجود مؤسسة جامعية في مدينة بنغازي، وهي كلية "الآداب والتربية" وكان عميدها أمريكيا من أصل عربي: مجيد قدوري فذهب إليها، وتحدث إلى طلبتها، واقترح عليهم تأسيس منظمة طلابية ترشح فيما بعد إلى الانضمام للاتحاد العالمي للطلاب في براغ، وبذلك يستطيعون المشاركة في المهرجان العالمي للشباب والطلبة، ويبدو أنه حدثهم عن زيارته لموسكو، ولم تمر إلا ساعات معدودات حتى أصبح مراقبا من البوليس السري، وقد اطمأن لما علم من إدارة الفندق أن إقامته ستستمر لبضعة أيام، ومن حسن حظ الفتى أن وجد أحد المهاجرين من أنصار صالح بن يوسف، فساعده على السفر في مساء نفس اليوم على

الخطوط المصرية: بنغازي – القاهرة، وضاعت الفرصة التي حلم بها طويلا إلى الأبد.

علم فيما بعد أن البوليس قد أوقف عددا من الطلبة الليبيين الناصريين العائدين في عطلة الصيف إلى بلادهم، وكان سكان بنغازي متعاطفين مع الخطاب الناصري.

****

عاش النظام المصري تحولا جذريا غداة مؤتمر باندونغ (أفريل 1955)، ثم إبرام صفقة السلاح التشيكية بعد ذلك بشهور قليلة، وقد توسط فيها الزعيم الصيني تشولاي بين موسكو وعبد الناصر بمناسبة لقائهما في باندونغ، ثم جاء تأميم شركة قنال السويس (1956/7/26) فالاعتداء الثلاثي على مصر، وقد خططت له فرنسا بالدرجة الأولى ردا بالأساس على دعم عبد الناصر للثورة الجزائرية، وهكذا تحولت القاهرة إلى عاصمة لحركات التحرر الوطني في آسيا، وإفريقيا، فلما وصل

إليها الفتى في صيف 1957 كانت مركزا سياسيا نشطا عربيا ودوليا بالإضافة إلى البعد الإفريقي الذي اكتسب شأنا بعيد المدى في السياسة المصرية بعد باندونغ، ولا بد من التذكير في هذا الصدد بأن رحلة الفتى إلى القاهرة قد جاءت بعد شهور من الاعتداء الثلاثي، وقبل شهور من إعلان الوحدة المصرية- السورية (1958)، فقد قرأ في الصحف المصرية أخبار تقاطر الوفود السورية، وقد كان أحدها برئاسة شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية، لإقناع القيادة المصرية بضرورة الموافقة على مشروع الوحدة، ويبدو أن عبد الناصر كان مترددا.

لم يشعر الفتى بالغربة في هذه الأجواء القاهرية، ولم يعتبر نفسه مجرد ضيف لـذا لم يشعر أنه غريب في القاهرة، أو مجرد ضيف أرسل في بعثة فنية يجب عليه التفرغ لها دون الاهتمام بما يجري حوله، كما هو الشأن في مثل هذه الحالات.

إن معرفته بالمساعدة الكبيرة التي حظيت بها حركات التحرر الوطني المغاربية، وبخاصة ما لقيته الثورة الجزائرية من دعم من جهة والحلم العربي الذي انتظر جيله تحقيقه من مصر الناصرية من جهة أخرى جعله يشعر أنه في بلده، فانغمس بسرعة في الأحداث وعني بما يدور من صراع سياسي وفكري لم يسمح صغر السن بالتعرف إلى تفاصيله وخفاياه.

لم يعرف الفتى شيئا يذكر عن اليسار المصري قبل أن يحط الترحال بالقاهرة، ولكن سرعان ما وجد نفسه في صفوفه، ولا يذكر كيف كانت همزة الوصل، ولكنه يذكر أنه تعرف إلى المناضلين عبد العظيم أنيس، ومحمود أمين العالم بمناسبة زيارته لجريدة "المساء" ، وكان لها صدى كبير يومئذ، وعرف في مراحل لاحقة أنهما من قيادة "الحزب الشيوعي المصري" المعروف باسم "الراية"، وكان معهم فؤاد مرسي، وإسماعيل صبري عبد الله،

كانت ترى هذه الجماعة في تقييمها لثورة 23 يوليو 1952 أن هناك مجموعة اشتراكية في السلطة، وعلى رأسها عبد الناصر.

كانت "المساء" منبرا لكتاب اليسار المصري، وقد طلب عبد الناصر من خالد محي الدين أن يؤسس هذا المنبر بعد عودته من المنفى في سويسرا نهاية 1955، وأميل إلى الاعتقاد أن ذلك لم يأت بمحض الصدفة، فقد جاء بعد باندونغ، وبعد صفقة الأسلحة التشيكية في خريف 1955.

كان الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب مؤيدا لمرشحي اليسار في انتخابات صيف 1957، مجندا الضيوف العرب للمشاركة في الاجتماعات الانتخابية، وهكذا وجد نفسه الفتى ذات مساء يخطب في تظاهرة انتخابية بحي العباسية مؤيدا عبد العظيم أنيس، ساهرا في إحدى الشقق التي يتجمع فيها الأنصار لينزلوا فجرا إلى

كتابة الشعارات السياسية فوق الجدران، أو وسط الطريق، وقيل أن عبد الناصر أراد أن تكون هذه الانتخابات نزيهة، ولكنها زيفت، كما هو الشأن في جل الحالات العربية بالأمس واليوم.

كتبت منى أنيس تقول: إن الكاتب الكبير نجيب محفوظ كان أيام الحملة الانتخابية يذهب إلى سكان حي العباسية، ويحضهم على التصويت لفائدة والدها عبد العظيم أنيس، ومن المعروف أن العباسية من الأحياء التي سكنها نجيب محفوظ.

قد يكون عبد الناصر أرادها فعلا أن تكون نزيهة ليضفي على ثورة يوليو طابعا ديمقراطيا، ويتدارك النقطة السوداء في التجربة الناصرية، وقد أساءت إلى تجربته، ولكن الحقيقة المرة أنه أصبح أسير أجهزة المباحث التي شيدها. إن خبراء نظم المعسكر الشرقي هم الذين أرسوا أسسها، وبخاصة مخابرات ألمانيا الشرقية "ستاسي"، وقد

جمعوا بين دقة العمل الألماني التنظيمي، والإفادة في الوقت ذاته من المدرسة النازية والستالينية معا.

إن هنالك رواية تذهب إلى القول: إن عبد الناصر كان يؤمن بإجراء انتخابات حرة، وأن حزب الوفد سيعود إلى السلطة من خلال هذه الانتخابات.

****

اشتهر كل من محمود أمين العام ورفيق دربه عبد العظيم أنيس في الوسط الثقافي المصري، ثم العربي بكتابهما المشهور "في الثقافة المصرية" الصادر لأول مرة عن "دار الفكر الجديد" ببيروت عام 1955 مع مقدمة لحسين مروة، وهو ينتسب إلى نفس المدرسة، وقد أحدث ضجة لأنه ألقى أضواء جديدة على نصوص عدد من كبار الكتاب المصريين مثل توفيق الحكيم، والعقاد، وطه حسين، ونجيب محفوظ، وشوقي، والمازني، وحافظ ابراهيم، وعبد الرحمان الشرقاوي انطلاقا من نظرية

الأدب الواقعي، أو أدب الالتزام، وهي المقولة التي نظر إليها في أوساط المدرسة الماركسية.

"إن المفكر أو الفنان، أو الأديب عندما يعبر إنما يختار مادته الخام من عناصر هذا المجتمع، ومن علاقاته المتفاعلة، أراد أم لم يرد، قصد هذا أم لم يقصد، وإن هذه العناصر والعلاقات تكشف في داخلها عن موقف محدد من هذا الأخطبوط الاستعماري الجاثم على وجداننا القومي المعرقل لعملياتنا الانتخابية الإبداعية، وعلى هذا فإن اختياره لمادته الخام، ومعالجته لهذه المادة ستحدد صدقه في مواجهة هذا الواقع، وفي صياغة حركته والتعبير عنه" (ص23). انطلاقا من هذه الرؤية تكون الثقافة عاملا موجها وفعالا في العملية الاجتماعية نفسها، وهي الرؤية التي حاولت الدفاع عنها لما تناولت قضايا الالتزام عند إشرافي على ملحق "أدب وثقافة" لجريدة "العمل" التونسية، وقد مثلت هذه الرؤية في منتصف

الستينات رافدا من روافد التنظير لتجربة اشتراكية فاشلة تجربة "الاشتراكية الدستورية".

لا شك أن الآراء النقدية الواردة في الكتاب قابلة للنقاش، وهي نفسها في حاجة إلى النقد، ولكن عندما ما ينزلها القارئ في ظرفيتها التاريخية يدرك سبب الصدى الواسع الذي وجدته في أوساط النخبة المثقفة العربية، وأصبح نص "في الثقافة المصرية" وثيقة ثمينة في التأريخ للحركة النقدية العربية الحديثة.

لما تعرفت إليهما لم أكن أعرف أنهما فصلا من الجامعة المصرية غداة أزمة مارس 1954 عندما أطردت السلطة عددا كبيرا من أساتذة الجامعة من الإخوان المسلمين، ومن اليساريين كان من بينهم عبد العظيم أنيس، ومحمود أمين العام، وكانا في طليعة من اعتقلوا أيام موجة اضطهاد اليسار المصري 1959 (اعتقلا ما بين 1959- 1964)، وقد دخلت الثورة المصرية منعرجا

خطرا، يحدثنا إدوارد سعيد عن هذا المنعرج عندما حاول بعد أربعة عقود من الزمن أن يعرف حقيقة مصرع صديق الشباب في ظروف مؤلمة وغامضة، وهو طبيب فلسطيني سخر حياته بعد تخرجه من كلية الطب لخدمة قضية شعبه، موزعا وقته بين علاج اللاجئين الفلسطينيين الفقراء في حي شبرا وبين نشاطه السياسي السري، وبعد القبض على الطبيب فريد حداد في ديسمبر 1959 فارق الحياة في دهاليز أمن الدولة المصري .

لم تكن محنة 1959 الأخيرة في حياتهما، بل توالت المحن، وعرف محمود أمين العالم المنفى في باريس أيام السادات، ولكنهما ظلا صامدين، ومن هنا جاء التقدير الكبير لهما حتى من أولئك الذين يختلفون معهما في الرأي اختلافا جذريا، إنهما يمثلان اليوم، وهما في منتصف الثمانينات، مثالا رائعا من أمثلة صمود المثقف في وجه الاستبداد، والظلم الاجتماعي.

تذكرت، وأنا أكتب هذه الفقرة أن المناضلين من المثقفين المصريين، ولقد عرفت الكثير منهم من كثب، لا يتحدثون عن ماضيهم النضالي إلا إذا سئلوا عنه، وجلهم اعتقل، وعذب أكثر من مرة دفاعا عن آرائهم، وتنديدا بالحكم المطلق الاستبدادي بينما نجد في بعض البلدان العربية الأخرى من يعتبر نفسه مثقفا مناضلا لمجرد طرده من السلطة، وسرعان ما يتحول إلى "زعيم" للتيار الديمقراطي لما كان داخل أجهزة السلطة، ولكن من حسن الحظ أن الناس يعرفون أنه كان مجرد بيدق بأيدي الحاكم بأمره.

****

تعرفت في جريدة "المساء" على كاتب مصري من طينة كبار المثقفين المصريين هو المرحوم محمد عودة (1920-2006)، وقد وصف في أحد الصحف المصرية غداة رحيله بأنه "حارس بوابة مصر" فقد كان مصريا حتى النخاع، روى بعض أصدقائه أنه التفت

إليهم، وهو في طريقه إلى المستشفى، سائلا في دهشة: من يحرس مصر أثناء غيابي؟ وهو كذلك عروبي إلى آخر رمق في حياته، فلما عاد الوعي إلى توفيق الحكيم، وهو في الثمانينات من عمره، ونشر كتابه "عودة الوعي" غمزا بعبد الناصر، ومتزلفا للسادات رد عليه عودة بكتابه "الوعي المفقود".

كتب مرة يقول:"لماذا بدا للشعوب، والقادة الوطنيين (ناصر، ونهرو، وماوتسي تونغ، وغيرهم) في الخمسينات والستينات أن الاستقلال الوطني، والتنمية، والعدالة الاجتماعية قضية حياة أو موت؟ ولماذا راحوا يجربون السبل المختلفة لتحقيق هذه الغايات في أسرع وقت؟ وكيف نجحت جهود، وأخفقت أخرى؟ والأهم من ذلك: هل عفى الزمن الآن على هذه الأحلام؟ أم أن الأحلام القديمة ما زالت صالحة لأن تمدنا بطريق إلى الفرج والخلاص؟".

ولا مناص في هذا الصدد من الإشارة إلى مسألة جوهرية لمستها لدى جل المثقفين المصريين، وبخاصة في أوساط اليساريين، وأعني نقدهم الموضوعي للتجربة الناصرية، فقد سمعت من يدافع عن جوانبها الايجابية دفاعا مستميتا، وهو ممن أطرد من الجامعة، واعتقل في موجة اضطهاد اليساريين عام 1959، وهو من أولئك الذين يؤيدون أن التجربة تصنف ضمن أبرز تجارب العالم الثالث في الخمسينات والستينات، وأن عبد الناصر كان وطنيا صادقا، مؤمنا بقيم العدالة الاجتماعية، ومخلصا في دفاعه عن قضايا الأمة العربية، وكان قبل هذا وذاك نظيفا، وهي صفة نادرة بين الحكام العرب.

ألمعت قبل قليل إلى أن النقطة السوداء في التجربة الناصرية هي غياب الحريات العامة.

أود الإشارة في هذا الصدد إلى أن المطلع على النصوص الناقدة للتجربة الناصرية يجد في طليعتها

نصين كتبهما في مرحلة مبكرة مفكران بارزان هما أنور عبد الملك في كتابه "مصر مجتمع عسكري"، وسمير أمين في نصه "مصر الناصرية"، وقد أسعفهما الحظ فاستطاعا الخروج من مصر إثر موجة اعتقال الشيوعيين ابتداء من جانفي (يناير) 1959، وصدر النصان إبان ما يعرف بالسنوات الذهبية للمشروع الناصري (1955-1967)، وجاء النقد قاسيا، متهما التجربة بأنها لا تتجاوز قرارات فوقية لا علاقة لها بقاعدة شعبية، أو بمخطط اقتصادي واجتماعي واضح، ولا علاقة لها برؤية فكرية واضحة، ولكن الكاتبين قد غيرا رأيهما فيما بعد حول الحقبة الناصرية، واعتبراها تمثل علامة مضيئة فيما عرفه العالم الثالث من تجارب تقدمية معادية للهيمنة الامبريالية، كما برهنت على ذلك التجارب التي مرت بها مصر فيما بعد.

وأود التذكير في هذا الصدد بأن السنوات الذهبية للمشروع الناصري شهدت أمرين بارزين:

- قرارات التأميم سنة 1961.

- تقديم المساعدة السخية للحركات الاستقلالية والتقدمية في الأقطار العربية والإفريقية، وقد ساعدها هذا العون على تحقيق استقلالها، والتصدي للقوى الاستعمارية، وتأتي الثورة الجزائرية في طليعة الحركات التحريرية التي أفادت من عون مصر الناصرية.

بالرغم من صدور عشرات الدراسات بالعربية، واللغات الأجنبية عن الناصرية فإن كثيرا من جوانبها ما تزال حرية بالمزيد من البحث والتدقيق، وبخاصة عندما يسمح للباحثين بالإطلاع على جميع الوثائق الرسمية، ويكفي عبد الناصر فخرا أنه حول انقلاب 23 يوليو إلى ثورة تجاوزت حدود مصر لتشمل الوطن العربي كله،

ولتصنف في التاريخ الحديث ضمن أبرز حركات التحرر الوطني التي عرفها العالم الثالث.

****

إن انغماسي في الحياة السياسية أثناء إقامتي بالقاهرة لم تحل دون الاهتمام بالحياة الثقافية، فقد أفدت من ترددي على دار الكتب، وبالخصوص على قسم المخطوطات فيها، وتعلمت الكثير من رئيسه المرحوم فؤاد سيد، كما أفدت في هذا المجال من أحد كبار المحققين للنصوص التراثية المرحوم محمود شاكر، وتعرفت في بيته إلى الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف يومئذ، وقد نجحت الثورة في كسبه فابتعد عن الإخوان المسلمين، وكانا صديقين حميمين، ولكن موقفهما من عبد الناصر على طرفي نقيض، ولم يفسد هذا الاختلاف المودة بينهما، ولمّا كنت متشوقا لمعرفة بعض الجوانب السياسية توجهت إلى الشيخ الباقوري ببعض الأسئلة، ولما حاول

الإجابة أسرع صديقه قائلا "أنت هنا للعب الطاولة، وليس للكلام في السياسة".

كانت مقهى "الاباس" من المقاهي التي يؤمها المثقفون والفنانون، ومن روادها يومئذ نجيب محفوظ، وميشل عفلق عند زيارته القاهرة وكان يلتقي فيها بمؤسسي الخلية المصرية لحزب البعث، وقد تأسست عام 1954، وكان من مؤسسيها جلال أمين، وعلي مختار، وتعرف إليه الفتى في زيارة لاحقة للقاهرة فوجده ضمن تيار اليسار المصري، ولم يشعر البتة أنه كان بعثيا.

وشاهد الفتى لأول مرة عبد الحليم حافظ في مقهى "الاباس"، وقد عرفه الجمهور سنة 1952 لينطلق بعد ذلك فيصبح صوت ثورة يوليو.

زرت الشيخ محمد الخضر حسين (1876-1958)، وقد تقدمت به السن، وكان في حالة وهن فاقتصرت

الزيارة على مجرد التحية، والإشادة بدوره الوطني، ثم العربي الإسلامي، وقد سمعت اسمه لأول مرة من الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، وهو صديق حميم لوالده.

كان لهذه الهجرة أثر بعيد المدى في الاهتمام فيما بعد بالقضايا العربية، وتجاوز القطرية الضيقة التي غرق فيها كثير من أبناء جيلي.

الهجرة الثالثة

تكمن خطورة هذه الهجرة في التعرف إلى عالم جديد يختلف تمام الاختلاف عن عالمي الهجرتين الأولى والثانية، يختلف في مبادئ الإيديولوجية الرسمية التي يستند إليها النظام السياسي القائم، ويختلف كذلك في النمط المعيشي اليومي، إذ أنه استطاع أن يربي أجيالا جديدة لها نظرة أخرى إلى الحياة، وإلى العالم.

عاش الفتى نتيجة هذه الهجرة ثمانية أعوام خلف ما سمي يومئذ بالستار الحديدي (خريف 1957- ربيع 1965)، وتنقل بين واجهتي النظامين: الاشتراكي والرأسمالي، فمن المعروف أن المعسكر الشرقي قد جعل من برلين الشرقية واجهة (فيترينة) لمزايا النظام الاشتراكي: ضمان الشغل، العناية بالثقافة والفنون، العناية

بالشباب، تمكين أبناء العمال والفلاحين من دخول الجامعة، العلاج المجاني، وغيرها من مكاسب النظام، وجعل النظام الرأسمالي من برلين الغربية واجهة لمزايا النظام الرأسمالي، وخصص ميزانية ضخمة لتزيين هذه الفيترينة.

كان التنقل قبل بناء الجدار لا يكلف أكثر من عشرين مليما، يؤم الفتى مساء "مقهى الصحافة" بشارع "فريد ريش" القريب من مقر البرلمان الألماني قبل الحرب، والمجاور للمخبأ الذي انتحر فيه هتلر بعد دخول الجيش الأحمر برلين، والقريب كذلك من مسرح برشت، ومن جامعة برلين القديمة التي انتسب إليها يوما محمد علي الحامي غداة الحرب العالمية الأولى، ويسهر ليلا بشانزيليزي برلين الغربية (كورفورستن دام) .

سمحت هذه الهجرة للفتى بالتعرف العميق إلى طبيعة النظام السياسي في هذه الأقطار، فقد كانت

"جمهورية ألمانيا الديمقراطية" تمثل أنموذجا متميزا بينها، ومنها تمكن من زيارة المدينة الساحرة بودابست، وسمع تفاصيل اجتياح الجيش الأحمر لها (1956)، وشاهد آثار الرصاص على واجهة العمارات، وزار للمرة الثانية موسكو لحضور ندوة الطلبة التونسيين بأوروبا الشرقية، ولم يكن هذه المرة خاضعا لبرنامج صارم، ومراقبة لصيقة. هذه الزيارة هي التي جعلت إيمانه بالتجربة الاشتراكية يهتز، ويشعر أن نظم المعسكر الشرقي ستتهاوى يوما ما، إن لم يبادر قادتها بالإصلاح، ويسمح لسكانها بهامش كبير من الحرية.

هـذا الشعور هو الذي جعله من أوائل من كتب في العالم العربي عن حركة المثقفين المنشقين في الاتحاد السوفياتي سلسلة من المقالات بعنوان "ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان".

كتب الفتى في أحد نصوصه عن هذه الزيارة، وعن مروره للمرة الثانية بالعاصمة البولونية قال:

"وتمت الزيارة الثانية للاتحاد السوفياتي بعد مرور ثمانية أعوام على الزيارة الأولى، وتعمقت في هذه الفترة ثقافة الفتى السياسية، وأصبحت تجربته أكثر نضجا، ولم تكن الزيارة رسمية يراقبها العسس من كل جانب، بل نظمت لحضور ندوة الطلبة التونسيين بدول أوروبا الشرقية، وعاش الفتى بعض الأحداث قد تبدو جزئية، ولكنها كانت كافية لتدخل القتامة على الصورة القديمة المشرقة، ولتتسرب الريبة إلى نفسه، ولم يصل الأمر في هذه المرحلة إلى حد خيبة الأمل، والحكم نهائيا على سلطة تزعم أنها اشتراكية، سيحدث ذلك لاحقا.

ولا يسمح المقام هنا إلا بالتلميح إلى بعضها، فهو لم ينس تلك الصور التي عاشها بالرغم من مرور أربعين سنة، لم ينس ذلك الضجيج الذي سمعه فجر اليوم الموالي

من وصوله إلى موسكو، وسكناه بأحد الأحياء الجامعية، وهو ضجيج أحد الطلاب السوفياتيين، وقد كان يستعد للعودة فجرا إلى أسرته بإحدى القرى فأخذ يحشو الخبز في جرابه حشوا دون أن يسأل عن هوية النائم بجواره، ولم يره من قبل، كما أن الفتى لم يلمح له وجها، وكان كل ما لاحظه تلك الحركة السريعة والمتوترة لحشو الخبز، وإخفائه في الجراب، ولما سأل الطلاب الأجانب المقيمين بالحي الجامعي عن سر ما لاحظه فكان الجواب أن الخبز متوفر في العاصمة موسكو باعتبارها تمثل واجهة النظام، وتؤمها وفود من الغرب، أما في القرى فهنالك أزمة في الخبز تحدث من حين لآخر، فالطالب أراد الإفادة من عودته إلى أسرته ليتحفها بالخبز، وقد أصبح الحصول عليه في مغازات الدولة أمرا صعبا، وهنا تذكر الفتى ما تعلمه نظريا، وهو أن نقطة القوة في النظام الاشتراكي تتمثل أساسا في توفير الضروريات في المرحلة الاشتراكية من مواد غذائية، وسكن، وتعليم وعلاج

مجانيين، وشغل قار، ثم سأل يوما ما عن سر ذلك الضوء المشع من غرفة صغيرة مقابلة للباب الذي سمح له بالدخول منه من أبواب جامعة موسكو، ولا يمكن الدخول إليها إلا بإذن ، أو باستظهار هوية الإقامة فجاء الجواب: هنالك آلات تصوير تصور ليلا نهارا كل الداخلين من أبواب جامعة موسكو، وحدثت القصة الثالثة في طريق العودة من موسكو إلى برلين الشرقية، وفي نقطة المراقبة على الحدود السوفياتية البولندية لما دخل عون في زي مدني، وأشار إلى تفاحة كانت بجانب الفتى فظن أنه اشتهى أن يأكلها فناوله إياها فأخرج العون سكينا، وشطر التفاحة شطرين بحثا عن رسالة، أو ميكروفيلم أراد تسريبه أحد أعداء الثورة إلى الغرب، ومن هذه القصص تلك الأخبار المتواترة عن فتيات اختفين فجأة من الساحة الموسكوفية، وأرسلن لقطع الأشجار في غابات سيبيريا وذنبهن الوحيد أنهن وقعن في حب بعض الطلاب الأجانب، ورفضن أن يتحولن مخبرات عنهم، ومرة

أخرى كان للعاصمة البولندية فرصوفيا دور في بث الشكوك، وطرح التساؤلات، فمن المعروف أن لهفة دول شرق أوروبا على العملة الصعبة كانت كبيرة، واستنبطت الطرق المشروعة وغير المشروعة للحصول عليها فتفتقت أذهان المختصين في الاقتصاد السياسي الاشتراكي عن فكرة فتح مغازات في الفنادق الراقية التي ينزل فيها الوافدون من الغرب الرأسمالي تبيع بالعملة الصعبة السجاير الرأسمالية، والقهوة الصافية، وليست المخلوطة المزيفة، وتباع فيها كذلك الفودكا الحقيقية المصنعة للتصدير إلى أسواق البلدان الغربية، وهي بضائع لا يجد لها المواطن العادي أثرا في مغازات الدولة، وإن وجدت فلا بد من الدفع بالعملة الصعبة، أما العملة الوطنية فلا تقبل في هذه الأسواق.

وكان الفتى ذات مساء بأحد هذه الفنادق، فرأى أحد المواطنين البولنديين يحملق في البضاعة المعروضة

بمغازة الفندق، ثم جرى الحديث بينهما فقال له: إنني عامل بأحد المصانع هنا، وتحاول أبواق دعاية النظام يوميا أن تقنعنا بأن السلطة في بلادنا هي بيد الطبقة العاملة، وأمر أمام هذه الفنادق كل مساء لألقي نظرة على هذه البضائع، ولا أستطيع اقتناءها بالعملة الوطنية، وأرى بائعات الهوى يشترين بالدولار ما طاب لهن ولذ فأسأل نفسي: هل السلطة حقا بأيدينا معشر العمال، أشك في ذلك كل الشك.

لم يشعر الفتى في هذه المرحلة بخيبة الأمل، ولم تتهاو الأحلام، ولكن الشكوك اشتدت وطأتها، وبرز سؤال محوري: هل فعلا هذه الممارسة السيئة هي تطبيق لما قرأ من نظريات جذابة ومتألقة، ثم ما قيمة هذه النظريات إذا كانت الممارسة بهذه الصورة من السطحية والرداءة؟"

إن انتخاب الفتى أمينا عاما لاتحاد الطلاب الأفارقة مكنه من زيارة بلغراد لحضور ندوة عن إفريقيا، وقد بدأ المعسكر الشرقي يوليها عناية خاصة بعد وصول

بعض حركات التحرر الوطني الثورية إلى السلطة مثل النظام الجزائري الجديد، وما حدث في تنزانيا، وغينيا، وتجربة نكرومة بغانا، وما آلت إليه الأوضاع في الكونغو بعد سقوط لومومبا، وما يزال الفتى يتذكر حوارا دار بينه وبين "بوتكين" أحد كبار المختصين في شؤون القارة السمراء، وعضو أكاديمية العلوم بموسكو، وكان موضوع الحوار أن الفلاحين هم الذين يمكن أن يقودوا السلطة نظرا لغياب الطبقة البروليتارية في البلدان الإفريقية جنوب الصحراء، وكانت هذه الأطروحة قريبة إلى الرؤية الماركسية الصينية، ولكن "بوتيكين" أصر على أن القيادة يجب أن تكون للطبقة العاملة، إذ أن وعي الفلاحين لا يؤهلهم لتسيير شؤون الدولة، ولما سأله الفتى: هل أين هم البروليتاريون في هذه البلدان؟ فضرب مثلا بعمال السكة الحديدية في تنزانيا قائلا: إنهم يمثلون نواة طبقة البروليتاريا!

هذا نموذج من نماذج كثيرة على التحجر العقائدي الذي شوه الفكر الاشتراكي، وشوه بالتالي التجربة الاشتراكية نفسها، فما دامت الرؤية اللينينية الستالينية تقول لا بد أن تكون القيادة بأيدي الطبقة العاملة فلا بد من العثور عليها، ولو في صفوف مئات من عمال السكة الحديدية!

ولا بد من الملاحظة أن هذا الموقف قد تطور في أوساط الماركسيين الذين تحرروا من المقولات الدوغماتية، وبدءوا ينظرون لدور البورجوازية الوطنية التي قادت حركات التحرر الوطني، ثم استلمت السلطة في البلدان الآسيوية والإفريقية قائلين: إنها قادرة على قيادة تجارب اشتراكية بالتحالف مع فئتي العمال والفلاحين، ومع قوى التقدم في صفوف النخبة المثقفة.

هذا التحول في تحليل قضايا العالم الثالث أبرزته ندوة إفريقية التئمت بلندن، وحضرها الفتى ممثلا لاتحاد

الطلبة الأفارقة، والتقى فيها بالمناضل المغربي الشهير المهدي بن بركة قبيل اختطافه في باريس عام 1965.

****

أود التلميح هنا إلى أن دور البورجوازية الوطنية قد حظي بالتنظير والدراسة من المفكرين الماركسيين، سواء كان ذلك من المختصين في قضايا العالم الثالث في المعسكر الشرقي يومئذ، أو من الماركسيين العرب، وتباينت الآراء حول دورها التاريخي، وفرض نفسه بحث الظاهرة بعد أن قادت حركات التحرر الوطني، وتولت السلطة غداة الاستقلال، فهنالك من ذهب إلى أنها لا تستطيع أن تقود حركات التحرر، ثم قيادة مرحلة تصفية الإرث الاستعماري، بل سرعان ما تحولت في بعض الحالات إلى طبقة "كومبرادورية" تسهل الهيمنة الامبريالية، وأيدت - انطلاقا من التجربة الناصرية- التيار الذي رأى ضرورة دعم التجارب التقدمية التي تبنتها

البورجوازية الوطنية، وتعميق التناقضات بينها وبين قوى الهيمنة الأجنبية، وأنها قد تنجح في بلورة تجارب اشتراكية جدية يمكن أن تقدم نموذجا ثالثا للسياسة التنموية (الطريق الثالث)، وقد أطلق عليه يومئذ مفهوم "الطريق اللارأسمالي"، ومن المعروف أن تجارب الستينات التنموية قد سقطت الواحدة تلو الأخرى، وتولت قيادة المرحلة الجديدة طبقة اجتماعية ارتمت في أحضان الهيمنة الامبريالية تحت شعار "النظام الاقتصادي العالمي الجديد"، ومن أبرز سمات هذه الطبقة التي تنعت نفسها زورا وبهتانا بالليبرالية اعتمادها على السمسرة والمضاربات، وعداؤها للفئات التي تؤمن بالدولة الوطنية، وتناهض خوصصة الدولة لفائدة السماسرة، إنها فئة اجتماعية لا علاقة لها بمفهوم المصلحة العليا للوطن. إن شعورها بأنها نبات طفيلي في مجتمعها جعلها تتحالف مع القوى الأجنبية، وتتوكأ في الداخل على قوى الظلم والاستبداد، وهي تعرف جيدا أن الليبرالية الحقيقية التي

عرفها المجتمع الغربي معادية بطبيعتها للنظم الاستبدادية، لأنها واعية بصواب مقولة ابن خلدون قبل ستة قرون "الظلم مؤذن بخراب العمران".

****

تمت الإشارة إلى أن الهجرة قد تركت أثرا بعيد المدى في التحول السياسي والفكري للفتى، ولكن هذا التحول قد تزامن مع الجانب المعرفي في حياته، فهي التي مكنته من إتقان اللغة الألمانية، والدراسة في مدينة جامعية عريقة اشتهرت بتقاليد الطباعة العربية، ونشر عدد كبير من مصادر التراث العربي الإسلامي، كما عرفت مدينة لايبزيغ برسوخ تقاليدها الاستشراقية، وشاءت الصدف أن يكون من العرب الأوائل الذي درّسوا في معهدها الاستشراقي، وتعلم عليه العربية عدد من المستشرقين الجدد الذين رعاهم النظام ليؤسس مدرسة استشراقية ماركسية، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير، ولكن نقطة

الضعف فيها تمثلت في إخضاع المنهج الجدلي الهيغلي الماركسي لمقولات لينينية، بل وستالينية كذلك، والغريب أن تأثير هذه مقولات قد تواصلت حتى بعد المؤتمر العشرين.

وسمحت له بالتعرف إلى رسوخ التقاليد الجامعية بالغرب، والتتلمذ على أساتذة مرموقين اشتهروا بصرامة المنهج، وسعة الاطلاع، وعلاقة الاحترام والانضباط مع طلابهم، وكانت هذه الهجرة فرصة أيضا للاطلاع على الثقافة الألمانية بجوانبها الفكرية والأدبية والفنية، فقد أصبح ذلك الفتى المتحلق حول شيوخ لا علاقة لهم في جل الحالات بالثقافة والفنون الحديثة من عشاق مسرح برشت في برلين، وهو مسرح يؤمه كبار القوم من النخبة الأوروبية.

كتب عام 1966 بمناسبة الذكرى العاشرة لوفاة برشت يقول:

إن العمل المسرحي مناسبة لإخراج المناقشة وإبرازها لطرح المشاكل الاجتماعية بمفهومها الجديد، ذلك المفهوم الثوري الذي جاء لخدمة الطبقات الفقيرة، وفضح عيوب البرجوازية، ونقطة الانطلاق بزعامة برشت للثورة المسرحية المعاصرة تلك التي كتب عنها قائلا: "عندما أصبحت صبيا تلفت حولي ونظرت إلى البيئة المحيطة بي فلم يعجبني الناس الذين أنتمي إلى طبقتهم، فهجرت تلك الطبقة وانضممت إلى طبقة الفقراء والمعدمين: " .

****

لا شك أن اهتمام الفتى بالإعلام، وعمله بالقسم العربي في إذاعة برلين ضمن برنامج (تعليم الألمانية إلى العرب) قد مكنه من تجاوز البيئة الجامعية البحتة ليولي عناية إلى الحياة الثقافية والفنية، فأصبح يتردد إلى

المسارح، وحفلات الموسيقى الكلاسيكية، وقد كان للمرأة الألمانية تأثير في ذلك دون ريب.

مكنته هذه التجربة كذلك من تجربة اجتماعية ثرية فما يزال يذكر الأسابيع التي اشتغل فيها بأحد المصانع ليكتشف مفهوم الإنتاج والإنتاجية، وليدرك التأثير السلبي لإشراف الدولة مباشرة على تسيير العملية الإنتاجية فقد تخلص النظام الجديد من الرأسمالية، ليعوضها برأسمالية الدولة، وليس بالمجتمع الاشتراكي الذي بشر به طويلا، فلما تجاوز دور الدولة الإشراف والتخطيط ودور الحكم بين القوى الاجتماعية المتنافسة، بل قل المتصارعة ليصبح التسيير المباشر تدهور الإنتاج وكسد السوق هذا إلى جانب فقدان الحرية وما يرتبط بها من مبادرة ومغامرة.

خطب خروتشف ذات يوم ببرلين في افتتاح مؤتمر الحزب الاشتراكي الموحد فقال مستغربا: لماذا فريتز

(اسم ألماني شهير) هناك مشيرا إلى برلين الغربية ينتج مرات أكثر من فريتز هنا!

يكشف هذا التساؤل إلى أي مدى تستطيع التنشئة الإيديولوجية المتحجرة أن تؤدي إلى الانغلاق، فزعيم دولة كبرى لم يتفطن أن السبب الأساسي يكمن في توفر الحرية هناك وغيابها هنا.

أدرك الفتى من تجربة عمله في المصنع أن العلاقات الاجتماعية في مؤسسة إنتاجية ذات طابع اشتراكي تختلف عنها في مؤسسة رأسمالية، وأدرك كذلك أن المساواة بين الرجل والمرأة في العمل قد حررت المرأة إلى حد بعيد لتفرض نفسها إنسانا قبل أن تكون جسدا، وهذه من نقاط القوة في ما كان يسمى بالمعسكر الاشتراكي يومئذ.

مكنت الهجرة الثالثة الفتى من التعرف عن قرب إلى مدى احتدام الصراع بين المعسكرين الشرقي والغربي، عاش ذلك في تنقله بين شطري برلين، ولمسه كذلك في محاولة منظمات طلابية غربية التأثير عبر أساليب مختلفة في إقناع الطلبة العرب والأفارقة بمغادرة جامعات أوروبا الشرقية، والالتحاق بالجامعات الغربية، والتنديد بالنظم السياسية القائمة فيها، وربما الإفادة منهم للحصول على معلومات، إذ أن الطلبة الأجانب لهم وحدهم حرية السفر بين الشرق والغرب، ولعل هذا ما يفسر وضعهم تحت مراقبة شديدة في البلدان التي يدرسون بها.

فمن المعروف أن الطلبة العرب والأفارقة قد ازداد عددهم في الستينات، وأسس الاتحاد السوفياتي جامعة خاصة بهم جامعة (لومومبا).

تلقى اتحاد الطلبة الأفارقة بألمانيا الشرقية دعوة من منظمة الشبيبة للحزب الاشتراكي النمساوي للمشاركة

في ندوة طلابية حول قضايا القارة الإفريقية التأمت بمدينة (فيلاخ) بجنوب النمسا فقاد الفتى وفد الاتحاد إلى الندوة، وهناك اكتشف مع رفاقه المخطط الحقيقي من وراء تنظيمها، ويتمثل أساسا في تنظيم ندوة صحفية بمدينة فينا يندد فيها المشاركون بالنظم السياسية في البلدان التي وفدوا منها، فرفض الفتى هذا المخطط، واتفق مع رفاقه على دعوة بعض ممثلي الصحف للكشف عنه، ومغادرة الفندق فورا إلى محطة القطار قبل أن يبلغ الخبر منظمي الندوة.

****

إن القارئ قد تساءل دون ريب عن ظروف بداية الهجرة الثالثة، وبخاصة بعد أن أدرك مدى تأثيرها في صقل الملامح الفكرية للفتى؟

إن نجاح حركات التحرر الوطني في كثير من البلدان الإفريقية والآسيوية، وميلاد عدد من الدول

الوطنية في منتصف الخمسينات قد لفت انتباه القيادة السياسية في أقطار أوروبا الشرقية إلى أهمية هذه الظاهرة الجديدة، وضرورة ربط علاقات صداقة وتعاون مع الدول الناشئة، ولا شك أن هذا الاهتمام الجديد يندرج ضمن خطة الصراع بين المعسكرين: الاشتراكي والرأسمالي.

مثل إسناد عدد من المنح الجامعية حقلا متميزا من حقول التعاون الجديد، فهل فكرت القيادة في كسب أنصار لها ضمن النخبة الجديدة في هذه البلدان عبر تنشئة أجيال في جامعاتها، وحسب رؤيتها؟

إنني أميل إلى الاعتقاد بأن هذا التفكير قد راود المخططين، ولكن النتيجة جاءت عكسية في جل الحالات، وقد ذكرني هذا بمقولة صدع بها أحد القادة الأفارقة في الخمسينات قائلا: إذا أردت أن يعود ابنك شيوعيا فأرسله

يدرس في الحي اللاتيني بباريس، أما إذا أردته أن يعود مرتدا عن الأفكار الشيوعية فأرسله يدرس في موسكو!

سلك إغداق المنح الجامعية مسلكين: مسلكا رسميا، أي إسنادها عبر التعاون الرسمي، ومسلكا غير رسمي، وأعني تلك المنح التي أعطيت للمنظمات الطلابية، وللأحزاب الشيوعية في حالات معينة.

****

لما رشح الاتحاد العام لطلبة تونس الفتى للدراسة في موسكو انضم للمرة الثانية إلى فئة ركاب الدرجة الثالثة على ظهر سفينة متجهة إلى مرسيليا، ومنها إلى باريس، ثم إلى براغ مقر الاتحاد العالمي للطلاب.

طال الانتظار في براغ أكثر من شهرين دون أن يأتي جواب "الكومسومول"، وقد مكنت هذه الإقامة الفتى من التعرف إلى نمط العيش اليومي في مدينة فاتنة من

مدن أوروبا الشرقية اشتهر سكانها بحبهم للثقافة والفنون، وعشقهم للحياة، وعرفوا بمقاومتهم الصامدة في وجه الاحتلال النازي دفاعا عن الاستقلال والحرية.

تساءل في مرحلة النضج: كيف استطاع النظام أن يأسر شعبا بهذه الحيوية، وهذا الماضي الحضاري العريق؟

يأتي الجواب كلما طرح هذا التساؤل: إن النظم الاستبدادية تستطيع بأجهزتها القمعية أن تلجم شعوبا ذات تراث حضاري متألق، ولعل من سخرية التاريخ أن تبقى هذه النظم نقطة سوداء تلعنها الأجيال على توالي الزمن.

****

تجول الفتى صباحا مساء في الشارع الرئيسي بمدينة براغ، وتردد على مقاهيها ذات الطابع الأوروبي الشرقي، والمتأثر أحيانا بالتراث العثماني، وكان الفصل

خريفيا متلبدا بالسحب فتزداد وجوه الناس المرهقين جهامة، أما المظهر الوحيد الذي كان يبعث في النفوس الحية البهجة والانشراح فهو جمال التشيكيات.

تذكر الفتى ربيع براغ 1967 لما أنزل الجيش الأحمر دباباته جوا، واحتل المدينة، وقبل ذلك بحوالي عشر سنوات اجتاح مدينة بودابست، وهدد قبلها باحتلال فرصوفيا، وقبل ذلك بثلاثة أعوام غزا شوارع برلين الشرقية تساءل الفتى: أي نظام اشتراكي هذا الذي تستند شرعيته الوحيدة في السلطة إلى القوة العسكرية، ولماذا يفشل ذلك الجهاز الأخطبوطي، جهاز الأحزاب الحاكمة في حل المشاكل ليفسح المجال إلى دبابات الجيش الأحمر؟

فهم في مرحلة النضج أن الأحزاب الشمولية لا تستطيع أن تعيش وتصمد إلا إذا توكأت على أجهزة أمنية قمعية، وتأتي الأحداث لتكشف أنها نمور من ورق، كما

برهنت على ذلك أحداث عاشتها أقطار عربية في النصف الثاني من القرن العشرين.

كتب الفتى في أحد نصوصه المنشورة عن ربيع براغ قال: " ومن مفارقات التاريخ المعاصر أن اليسار الأوروبي لم يدرك إدراكا عميقا مأساة غزو بودابست عام 1956 إلا في حالات نادرة لم تتجاوز بعض المثقفين الذي لم يصدقوا خرافة القضاء على "الثورة المضادة" لإنقاذ الثورة الحقيقية، وقد وقع الحدث في خضم الحرب الباردة، وأنسته في بلدان العالم الثالث فورة حركات التحرر الوطني، ولكن الوضع قد تغير أيام خنق ربيع براغ في المهد، فبرزت موجة الانشقاق والتصدع داخل أحزاب اليسار الأوروبي والعربي، وانطفأت حماسة المثقفين لمقولة "الإلتزام"، ولم يتحول الإلتزام إلى إلزام في أوروبا الشرقية فحسب، بل شمل كذلك أقطارا عربية،

فأصبح الحديث عن الحريات والديمقراطية خروجا عن سياسة الإجماع التي مثلتها الأحزاب الشمولية".

****

إن كل من عرف من كثب النظم السياسية في أقطار أوروبا الشرقية تواجهه قضيتان محيرتان:

- يمكن أن تنعت القضية الأولى بإشكالية الماركسية والحرية: هل الخلل في النظرية نفسها، وبخاصة بعد أن حرفتها النظم، أم في التطبيق؟

- أما القضية الثانية فيمكن تلخيصها في السؤال التالي: كيف أمكن توظيف النظرية الفلسفية لكبت الحريات العامة، وسياق الناس إلى المعتقلات الستالينية؟

****

جــاء جواب منظمة "الكــومــسومــول" بالموافقة عــلى منحة واحــدة أسندت إلــى رفيق الفتــى في الرحلة

المرحوم المنصف سلامة، وقد تخرج طبيبا مـن جامعة موسكو، ولما طال انتظار الموافقة على المنحة الثانية اقترح رئيس الاتحاد العالمي للطلاب "بـلـيكـان" أن يغير الفتى وجهته، ويفكر في الذهـاب إلـى "ألمانيا الديمقراطية"، ذلـك أن هدفه دراسة العلوم الإنسانية فيصبح تعلم الألمانية أكثر فائدة من تـعلـم الروسية، ولم تمر سوى أسابيع قليلة حتى جاءت موافقة منظمة "الشباب الألماني الحر".

لم ينس الفتى الشخصية القيادية اللامعة التي حظي بها بليكان، كـان قياديا بارزا في اللجنة المركزية للحزب الحاكم فـي براغ، وذا ثقافة واسعة، مجيدا إلى جانب الروسية لأبرز اللغات الأوروبية، وقد ربطته علاقة صداقة بجماعة من قادة الاتحاد العالم لطلبة تونس.

كان من أنصار ربيع براغ فانشق عن الحزب بعد اجتياح الجيش الأحمر المدينة، ولجأ إلى إيطاليا فرشحه

الحزب الاشتراكي الايطالي للبرلمان الأوروبي ليصبح مدافعا مستميتا عن الحريات العامة والديمقراطية.

إن عدد مثقفي أوروبا الشرقية الذين تمردوا على النظم التي عملوا ضمن أجهزتها، وكفروا عن ذنوبهم بفضح أساليبها القمعية ليس قليلا، ولكن هذه الظاهرة نادرة في صفوف المثقفين الذين خدموا ركاب السلط القمعية التي عمت الوطن العربي بالأمس واليوم!

لم ينس الفتى ما سمعه منه، وهو يودعه في محطة القطار، لما قال: إنني شجعتك على الدراسة في ألمانيا رغم أنني أكره الألمان، وأبوح لك بسر، إن والدتي قد توفيت حرقا أثناء الغزو النازي، ولكن هذا لا يمنع من اعترافي بتألق الفكر الإنساني في الثقافة الألمانية.

لم ينس الفتى هذا البوح، مفيدا منه في عدم الخلط بين الشعور العاطفي الشخصي، والمواقف الموضوعية.

وصل الفتى إلى "محطة الشرق"، في برلين، وهو أول طالب تونسي يصل إلى "جمهورية ألمانيا الديمقراطية"، فاستقبله نائب وزير التعليم العالي. لم يتجاوز يومئذ طلبة البلدان النامية بضع عشرات، ولذا كانوا محل رعاية كبرى، ولكن الأمر قد تغير بعد ذلك، واكتشف الفتى، لما تحمل مسؤولية الأمانة العامة في اتحاد الطلبة الأفارقة، أن "الأخلاق الاشتراكية" التي مثلت مقولة بارزة في الخطاب الايديولوجي للنظام لم تنجح في التغلب على العنصرية ، وبخاصة ضد الأفارقة.

امتدت هذه الهجرة ثمانية أعوام عاش أثناءها الفتى أحداثا خطيرة وخطرة ليس الهدف في هذا النص الوقوف

عندها، فقد ألمع إليها في بداية هذه الفقرة، ولكنه حريص على إبراز النقاط التالية:

أولا- حافظت الجامعة الألمانية على تقاليدها رغم التحول الذي عرفه النظام السياسي، واستمر الصراع الفكري الخفي بين أساتذة الجيل القديم الذي لم ينخرط في الحزب، وحاول أن يبقى وفيا لتقاليده الجامعية، وتمثلت نقطة قوته الوحيدة في كفاءته العلمية، وبين الكوادر الجديدة الملتزمة سياسيا، وقد ساعدها النظام الجديد على تولي مناصب قيادية في الجامعة، وكانت نقطة الضعف في صفوف هؤلاء هزال الكفاءة العلمية في جل الحالات.

ثانيا- أما محاولة التأثير الإيديولوجي على الطلبة، وبينهم الطلبة الأجانب فقد جاءت عبر تدريس "الماركسية- اللينينية" في المرحلة الأولى من التعليم الجامعي، وضرورة النجاح في اختباراتها. لم يفد الفتى شيئا من هذه الدروس في تعرفه إلى الفكر الماركسي

الأصيل، فقد كانت شرحا دوغماتيا لمجموعة من المقولات الدعائية الفجة.

نهل الفتى الفكر الجدلي الماركسي من أدبيات المفكرين الماركسيين في البلدان الغربية.

ثالثا- لم يشعر الفتى طوال السنوات التي عاشها في ألمانيا الشرقية بسطوة جهاز المخابرات "ستاسي"، ولم يسمع عنه شيئا، ولكن الجهاز المسيطر هو الجهاز الحزبي، خلاياه موجودة في كل مؤسسات الجامعة، وأعضاؤه من الأساتذة والطلبة مجبرون أن يحملوا شارته، وهي تنبئ على نفوذهم وحظوتهم بصرف النظر عن الكفاءة الجامعية، وهي ظاهرة عرفتها، وما تزال، النظم الشمولية في كل مكان. لا شك أن هذه الخلايا الحزبية كانت مرتبطة ارتباطا وثيقا بجهاز المخابرات، وأن أعضاء الحزب من الطلبة كانوا عيونا على زملائهم من الألمان والأجانب في الوقت ذاته.

رابعا- إن زيارة الفتى أكثر من مرة للمعتقل النازي "بوخانفالد" جعلته يدرك انطلاقا من عالم الممارسة إلى أي مدى تبلغه النظم الاستبدادية في ابتكار أساليب التعذيب، والتنكيل بمعارضيها، وجعلته يدرك أيضا مدى قدرتها على تنشئة فئة من الزبانية يتحولون مع الزمن إلى فنيين في صناعة الموت، فقد سمع في إحدى الزيارات عن حراس في المعتقل يقضون يومهم في تعذيب البشر حتى الموت، وقذف جثثهم في الأفران لتحرق، ويعودون مساء إلى منازلهم لتناول العشاء مع الأسرة، ثم يذهبون للنوم رفقة زوجاتهم!

كان من بين العاملين في "المحتشد" أطباء أسنان مهمتهم اقتلاع الأسنان المذهبة قبل أن يقذف بجثث أصحابها في المحرقة.

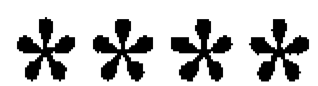
جيء بالمعتقلين من جنسيات مختلفة، ولم يكونوا من اليهود فقط، بل كان ضمنهم ضباط سوفيات وقعوا في

الأسر، مصير هؤلاء الإعدام حتما، وكان بينهم معارضون ألمان كذلك.

كانت القيادة السياسية تنظم لضيوفها زيارات للمعتقل النازي، وقد حولته إلى متحف، كاشفة عن جرائم النازية، وعن تحالف الرأسمالية الألمانية معها، وهنا يتساءل المرء: ألم يكونوا واعين بحقيقة مرة أخرى تلقي ظلالها عليهم، وهم يندون بجرائم النظام السابق، وأعني وجود معتقلات شبيهة بها في المعسكر الشرقي، ألم يكونوا على علم بالمعتقلات الستالينية التي لا تختلف أساليبها كثيرا عما عرفته المعتقلات النازية، أم أن شعار مقاومة "أعداء الثورة" يبرر كل شيء!!

إن أول ما تسعى إليه النظم الاستبدادية بالأمس واليوم هو إخفاء الحقائق وتزييفها، فقد زار الفتى أكثر من مرة المعتقل النازي "بوخن فالد" قرب مدينة الآداب والفنون: "فيمار"، مدينة جوته وشيلر، وزار كذلك

المعتقل النازي الشهير "أوشفيتس" قرب المدينة الجامعية العريقة "كراكوفيا"، واستمع إلى قصص النضال البطولي الذي خاضته قوى الحرية والتقدم في ألمانيا نفسها، وفي البلدان الأوروبية المجاورة ضد النظام النازي مع الإشادة بدور الاتحاد السوفياتي في إلحاق الهزيمة بالنظام النازي العنصري، وكلما سمع هذا الخطاب ازدادت حماسته لتأييد تجربة اشتراكية كان لها دور بعيد المدى في تحرير شعوب بأسرها من براثن نظام استبدادي فاشي، ولم يدرك يومئذ أن معتقلات جديدة ذات طابع ستاليني هذه المرة قد فتحت أبوابها قبيل الحرب في الاتحاد السوفياتي، وبعدها في بقية بلدان أوروبا الشرقية، وكانت وسائل التعذيب فيها لا تقل وطأة وبشاعة عن المعتقلات النازية.



تساءل الفتى في مرحلة لاحقة: هل أن زعماء الأحزاب الشيوعية العربية كانوا على علم بالمعتقلات الستالينية، وكثير منهم كان يقضي عطلته السنوية على شواطئ البحر الأسود؟

سئل أحد قادة حزب شيوعي عربي في إحدى الندوات: هل سمع بجرائم "الرفيق" ستالين؟ فأجاب لم أسمع شيئا قبل المؤتمر العشرين.

ولما يتساءل الدارس عن مواقفها بعد المؤتمر العشرين فإنه لا يجد جوابا واضحا ومقنعا.

لا شك أن تقرير خروتشوف قد أحدث هزة في صفوفها بلغت التصدّع في حالات معينة، ولكنها مواقف ظلّت طي الكتمان، نظرا للسرية التي تحاط بها عادة أعمال الأحزاب الشيوعيّة.

****

يقع معتقل "بوخنفالد" في ضواحي مدينة الأدب والفن "فيمار"، مدينة قوته وشيلر، وهي المدينة التي حملت اسم جمهورية ألمانيا الاتحادية "جمهورية فيمار" (1919-1933)، وقد سقطت لما استولى النازيون على السلطة.

كان سكانها يشاهدون طوال النهار الدخان يتصاعد من مداخل الأفران دون أن يعلموا أنه دخان جثث بشرية تحترق!

شاهد الفتى وثائق وصورا عن انتفاضات متعددة للمساجين رغم وسائل القمع الرهيبة فتأكد أن الإنسان قادر على الثورة ضد القمع مهما اشتدت قبضة الجلاوزة.

رمى النازيون في المعتقل بعدد كبير من رجال النخبة الألمانية المعارضة، ومن أبرز الأسماء المشهورة التي زج بها في المعتقل الكاتب المجري، الحائز على

الجائزة نوبل إيلي فيزل(ELIE WIES EL)، وقد تحدث عن ذلك طويلا في المذكرات المشتركة بينه وبين الرئيس الفرنسي السابق فارنسوا ميتران (Mémoire à deux voix)، ورغم ثقافته العميقة، والتجربة القاسية التي عاشها في المرحلة النازية فإنه يقدم برهانا على مدى تغلغل الإيديولوجية الصهيونية حتى بين كبار المثقفين المنحدرين من أصل يهودي، فهو يعرف جيدا أن أساليب القمع الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني الصامد هي نسخة محدثة من الأساليب النازية، ورغم ذلك فانه لم يندد بها، ولكن من حسن الحظ أن الدرس تلقاه من أبناء جلدته، وفي مقدمتهم المؤرخون الجدد الذين بدأوا ينسفون الأساطير التي تقوم عليها دولة إسرائيل انطلاقا من أبحاث جديدة وجدية.

إن إيلي فيزل هو من أدرى الناس بالمفاوضات السرية التي كانت تدور في إسطنبول بين قادة الحركة

الصهيونية والنازيين قبل أن يتخذ قرار التصفية النهائية (1942).

إن الإيديولوجية الصهيونية، والإيديولوجية النازية يلتقيان عند أس متين من أسسهما: التفوق العنصري، فالنازيون نظروا لتفوق العنصر الجرماني الآري، والصهانية يعتمدون في رؤيتهم على خرافة "شعب الله المختار".

ورد في أحد نصوصي المنشورة ما يلي:

"ومن الموضوعات التي أخفق العرب في الإفادة منها لفضح الوجه الحقيقي للصهيونية تعاون قادتها مع النازيين على حساب اليهود الضعفاء، وهو تعاون لم يعد محل شك بعد أن كشفته الوثائق الثابتة، ونكتفي بالإشارة في هذا الصدد إلى أن كثيرا من الدراسات التي كتبها مؤرخون يهود، والمعتمدة أساسا على وثائق "الرايش

الثالث" قد أثبتت تعاون قيادة الحركة الصهيونية مع النظام النازي، وذلك خلال الفترة الممتدة من 1933 إلــى 1942، وهي السنة التي إلتأم فيها ببرلين المؤتمر النازي الذي قرر "الحل النهائي " للمسألة اليهودية، فقد بقيت المنظمة الصهيونية لليهود الألمان معترفا بها رسميا إلى سنة 1938، أي خمسة أعوام بعد وصول هتلر إلى السلطة، وقد سعت القيادة الصهيونية مقابل الاعتراف بها إلى مقاومة مقاطعة العالم الحر للنازية والفاشية، وقد جاء هذا التحالف نتيجة طبيعية للتشابه الإيديولوجي بين النازية والصهيونية، وكان الشغل الشاغل للقيادة الصهيونية هو تأسيس دولة إسرائيل في فلسطين قبل الاهتمام بضعفاء اليهود، فقد صرح ابن غريون في 7 ديسمبر 1938 قائلا: "لو أعلم أنه من الممكن إنقاذ جميع أطفال ألمانيا (يعني اليهود) وترحيلهم إلى انكلترا، أو إنقاذ نصفهم فقط، وترحيلهم إلى أرض إسرائيل فإنني سأختار الحل الثاني، ذلك أنه يجب علينا

الأخذ بعين الاعتبار ليس فقط حياة هؤلاء الأطفال، بل أيضا تاريخ شعب إسرائيل".

وكان ابن غوريون من أبرز القادة الصهيونيين الذين تعاونوا مع النازيين إلى جانب مناحين بغين، واسحق شامير، وموشي شارت (كان اسمه يومئذ موشي شرتوك)، وغولدا مایر، وليفي إشكول، ومورد خاي رومكفسكي، وقد عينه النازيون بعد احتلالهم لمدينة لودز البولونية عام 1939 رئيسا للمجلس اليهودي فيها.

استعملت مفهوم "تصنيع الموت"، وليس في ذلك مبالغة، فمن المعروف في تقاليد الصناعة الثقيلة في ألمانيا ربط مصانعها عبر شبكة حديدية خاصة بالشبكة الأم لتصل عربات القطار معبأة بالفحم وقودا لأفران الحديد والصلب، رأيت هذا التفرع لسكة الحديد التي تصل عربات القطار من شتى البلدان الغربية الواقعة تحت سيطرة النازيين، وهي محشوة هذا المرة بالبشر:

أطفالا، وشيوخا، ونساء لتوقد بجثثهم أفران المحرقة بعد أن يمطروا بالغاز القاتل في غرف محكمة الغلق.

كنت من أوائل العرب الذين زاروا معتقل "أوسشفيتز" بالقرب من المدينة الجامعية البولونية "كراكوفيا"، وتثبت وثائق المعتقل، وقد تحول إلى متحف، أن الضحايا ينحدرون من فئات اجتماعية مختلفة، فمنهم الغجر، وأسرى الجيش الأحمر، وأعداء النازية في ألمانيا، وفي الأقطار الأوروبية الأخرى، ولكن الفئة الأكبر هي دون ريب فئة اليهود، ونحن نعرف أن ضحايا النازية من اليهود بلغوا بضعة ملايين، ونعرف كذلك أن هنالك من يشكك في العدد الرسمي المعلن، وهو موقف أقل ما يقال فيه إنه عاطفي ينبئ في حالات كثيرة عن موقف ديني، أو عنصري دفين، ذلك أن القضية مبدئية، والموقف هو موقف إنساني يجب أن يكون متعاطفا مع ضحايا المحرقة سواء كان عددهم

بضعة ملايين، أو بضعة آلاف، وينبغي التمييز تمييزا واضحا بين التضامن مع الضحايا، ومع ذويهم، وبين استغلال الصهيونية لمأساة إنسانية لم يعرفها التاريخ من قبل لمآرب سياسية وإيديولوجية!

إننا معشر العرب في طليعة من ندد بالاضطهاد النازي، فالتعايش السلمي بيننا وبين اليهود تعود جذوره إلى قرون طويلة، وهو تعايش أسهم فيما حققته الحضارة العربية الإسلامية من تقدم وتألق. وقد سجل التاريخ فعلا حالات ظلم وتوتر، ولكن لا علاقة لها لا بالدين، ولا بالجنس، فأسبابها سياسية بحتة.

لما كان عدد من الألمان والفرنسيين يسعون بالأسر اليهودية ليرسل بهم إلى المشانق كانت العائلات التونسية أيام الاحتلال النازي تحمى جيرانها اليهود، وتخفيهم في منازلها.

هذه الحقائق الثابتة التي تحاول الصهيونية أن تطمسها أليوم، ويتحالف معها في ذلك النظام الغربي الرسمي، محاولا أن يكفر عن ذنوبه الكبرى تجاه الأقليات اليهودية بالصمت عن مأساة أخرى يعيشها شعب شرد من أرضه ودياره، ويعيش الملايين من أبنائه في المنافي والشتات هو الشعب الفلسطيني الرازح تحت الحصار، وسياسة التجويع، والخاضع لنفس الأساليب التي استعملها النازيون ضد اليهود.

كتبت نصا في شهر جانفي (يناير) 2005 بمناسبة مرور ستين سنة على تحرير معتقل "أوسشفيتز" عام 1945، وقد تم إحياء الذكرى في المعتقل نفسه نددت فيه بالنظام النازي، وربطت بينه وبين الامبريالية الاستعمارية، وقد مثلت دعامته الصلبة، وذكرت بتصفياتها ومحارقها الجماعية في الجزائر، وأكدت تضامن جميع القوى المعادية للعنصرية، وللنظم

الاستبدادية، وفي طليعتهم القوى العربية، مع ضحايا المحرقة، ومع اليهود بالدرجة الأولى، وتوجهت في خاتمة النص إلى رؤساء الدول المشاركين في إحياء الذكرى قائلا: هل هم قادرون على الربط بين المأساة التي يحيون ذكراها وبين مأساة أخرى يرزح الشعب الفلسطيني تحت نيرها، ويعاني يوميا من أساليبها القمعية، وهي شبيهة بالأساليب التي طبقت على ضحايا المأساة التي يحتفلون بذكراها!

فشلت السياسة العربية في التمييز أمام الرأي العام الدولي بين مقاومة الشعب الفلسطيني نظاما عنصريا إرهابيا (إرهاب الدولة) يلتقي في كثير من سماته مع النظام النازي، وهو عنصري وإرهابي (إرهاب الدولة) وبين معاداة السامية.

إن العرب أبعد ما يكونون عن معاداة السامية، إن المفهوم نفسه قد تسرب إلى أدبيات الفكر السياسي العربي من اللغات الأوروبية.

خامسا- إن أبرز حدث عشته في مرحلة الهجرة الثالثة هو بناء جدار برلين، فقد جاءت صاحبة الفندق فجر يوم الأحد 13 أوت (أغسطس) 1961 تقرع باب الغرفة بشدة قائلة: إن برلين أغلقت فظننت أن حركة النقل بين شطري المدينة قد توقفت مؤقتا، ولما خرجت مهرولا للتأكد مما سمعته وجدت حشدا من الناس متجمهرا قرب محطة المترو مؤكدين أن الحدود قد أغلقت فجرا أمام جميع وسائل النقل من برلين الغربية وإليها، وجلهم من سكان الغربية الذين سهروا ليلة الأحد مع خليلاتهم في الشرقية، وفي طريقي إلى مطار برلين الشرقية ظهر نفس اليوم شاهدت الجدار الجديد، وشاهدت النوافذ المشرفة على الغربية، وقد سدت، ولعل

بعض الناس لا يعرفون أن بعض الشوارع مقسمة إلى نصفين: نصف تابع للغربية، والنصف الأخر تابع للشرقية، واضطر النظام إلى سد النوافذ لان كثيرا من السكان قذفوا بأنفسهم منها لتتلقاهم شباك سكان الغربية، ثم سدت في الأيام الموالية جميع الثغرات، ومنها مجاري المياه، ومن أخطر ما شاهدت الدبابات السوفياتية المتجهة بصواريخها إلى الغربية، وقد أثبتت الوثائق والدراسات فيما بعد أن قيادة كرملين قد استعدت لحرب مع القوى العسكرية المحتلة للقسم الغربي من المدينة قبل أن تعطي الضوء الأخضر لبناء الجدار (سقط الجدار أمام زحف الجماهير مساء يوم 1989/11/9، ومثل ذلك الاسفين الأول في نعش الاتحاد السوفياتي).

إن حدة الحرب الباردة التي خطط لها الغرب ضد ألمانيا الشرقية، وبخاصة في جوانبها الاقتصادية قد بلغت مرحلة إما بناء الجدار، أو سقوط النظام، وسقوط

ألمانيا الشرقية يعني حتما يومئذ سقوط النظام في فرصوفيا فتصبح قوى الحلف الأطلسي على الحدود السوفياتية، وقد أكدت الدراسات الإستراتيجية أن القيادة السوفياتية لم تكن مستعدة لحرب عسكرية كلاسيكية فحسب عندما سمحت ببناء الجدار، بل استعدت لرد فعل نووي.

إن الصراع بين المعسكرين في برلين مثل مقياس الحرارة الذي بلغته الحرب الباردة، ومن أبرز سماتها توقع اندلاع الشرارة الأولى في كل لحظة، كما حصل في قضية نصب الصواريخ السوفياتية بكوبا.

مطار برلين الشرقية لم يغلق فاستطعت السفر إلى باريس على متن الخطوط الجوية البولونية، وكانت الوحيدة المسموح لها بالربط بين برلين الشرقية وبعض العواصم الغربية، وفي باريس ألغيت مواصلة السفر إلى البلاد، وعدت إلى برلين خشية أن تكون الأوضاع

مضطربة في تونس فأمنع من السفر، وذلك بعد أن قرأت في الصفحة الأولى لإحدى الصحف المسائية الصادرة في باريس يوم 1961/8/13 خبر اغتيال المرحوم صالح بن يوسف في مدينة فرانكفورت (اغتيل يوم 1961/8/12)، وتابعت خبر الاغتيال في الصحف الألمانية، واتضح منذ الساعات الأولى أنه اغتيال سياسي، كما صرح بذلك مدير الشرطة بفرانكفورت، ونشرت الصحف الألمانية سيناريو الإيقاع به في الفخ نقلا عن موظف الفندق الذي اغتيل فيه، فندق قيصر (قيزرهوف) على مرمى حجر من محطة القطار.

سئلت أكثر من مرة بصفتي شاهد عيان: كيف استطاع النظام أن يتكتم على مخططه، ودون أن يتسرب خبر بناء الجدار إلى الجواسيس، والمدينة بشطريها تعج بهم؟

إن مثل هذه المخططات لا تستطيع تنفيذها إلا الأحزاب الشمولية التي عرفها المعسكر الشرقي، وبخاصة ألمانيا الديمقراطية التي امتزج فيها الانضباط الألماني بالإيديولوجية. المخطط لم تنفذه الأجهزة الرسمية، بل جند الحزب خمسين ألف من أعضاء "الشبيبة الألمانية الحرة"، ووزعهم على أماكن مختلفة، وهم بطبيعة الحال لا علم لهم البتة بما سيقومون به، وإنما قيل لهم بعد أن غلقت عليهم الأبواب أنهم سيقومون بمهمة كبرى ذودا عن دولة العمال والفلاحين، وسيخبرون بها عندما تدق ساعة الصفر.

سادسا- تساءلت في مرحلة النضج، وبعد أن اطلعت على عمق الثقافة الألمانية، وعلى تألق نخبتها: كيف يحكم بلدا مثل ألمانيا حكام من طينة هتلر، وفالتر ألبريشت: الأول ضابط صغير شبه معتوه، والثاني شبه

أمـي، وكـلاهـمـا لا عـلاقـة لـه لا مـن قـريـب، ولا مـن بـعـيـد بـالـفـكـر والـتـفـكـيـر؟

أجـاب أحـدهـم ذات مـسـاء قـال : لا تـسـتـغـرب مـن ذلـك، فـكـثـيـر مـن حـكـمـوا بـلـدانـا ذات حـضـارة عـريـقـة، وتـعـج بأصـنـاف الـنـخـب يـنـتـسـبـون إلـى الـصـنـف الـذي أشـرت إلـيـه، فـمـن كـانـت طـمـوحـاتـه لا تـتـجـاوز إدارة حـكـم مـحـلـي ، ثـم تـشـاء سـخـريـة الـتـاريـخ أن يـصـبـح يـحـكـم شـعـبـا عـريـقـا فـي حـضـارتـه، فـهـل تـنـتـظـر مـنـه أن يـكـون إنـسـانـيـا يـتـصـرف بـذكـاء وحـكـمـة، هـم بـطـبـيـعـتـهـم يـعـانـون مـن مـركـبـات نـقـص، ويـدركـون أن الـنـاس لا يـحـبـونـهـم، ولا يـحـتـرمـونـهـم، وإنمـا يـرهـبـون زبـانـيـتـهـم، ومـن هـنـا تـراهـم يـتـفـنـون فـي أسـالـيـب الـتـرعـيـب، ويـحـاولـون الـتـنـقـيـب عـمـا فـي صـدور الـنـاس مـن أسـرار، وقـد عـاشـت أمـريـكـا الـلاتـيـنـيـة هـذه الحـالات فـي مـرحـلـة جـمـهـوريـات المـوز ، ثـم واصـل صـاحـبـي كـلامـه قـال: اسـمـح لـي أن أقـص عـلـيـك فـي هـذا الـصـدد قـصـتـيـن الأولـى مـن ألمـانـيـا أيـام حـكـم الـنـازيـيـن، فـقـد كـان ممـنـوعـا

الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية، وكان كثير من الألمان يتابعون أخبار الحرب من الإذاعة البريطانية "ب ب س" فاخترع النظام آلة تسجيل تكشف عند وضعها في مدخل العمارة أن هنالك من سكانها من ينصت لإذاعة أجنبية معادية، ثم تأتي بعد ذلك محاولة التعرف إلى الشقة المشكوك فيها!

أما القصة الثانية فهي من بلد عربي، فقد اكتشفت شخصية بارزة بعد خمسة أعوام من الزواج أن امرأته ضابطة في المخابرات!

وأردف قائلا: المشكلة ليست في هؤلاء الحكام الذين جاء بهم التاريخ سخرية وانتقاما، ثم يقذف بهم في سلة المهملات، وإنما في أولئك "المثقفين" الذين يركضون لاهثين وراء ركبهم السلطاني، وقد عرف التاريخ هذا الصنف طوال حقبه المتتالية.

وختم صاحبي قال:

أنت تعرف أني شغوف بتاريخ المجتمع العربي الإسلامي فلو استعرضنا أسماء من حكموه من تأسيس الدولة في المدينة إلى اليوم، وعددهم يتجاوز المآت إذ لم يكن أكثر، فكم عدد أولئك الذين خلد التاريخ أسماءهم في باب سياسة العدل، ومقاومة الظلم والطغيان حسب مقاييس عصرهم بطبيعة الحال؟

ثم أجاب: إنني لا أعرف إلا ثلاثة: العمران، عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز، وسلطة الحق علي بن أبي طالب!

أنا أعرف أنك من أنصار العقلانية والسببية، وترى بأن للتاريخ سننا تتحكم فيه، ولكن اسمح لي أن أقول لك: إنني أصبحت بعد طول التجربة أومن بأن للتاريخ سخريته، وإلا كيف تفسر أنه يرصع أسماء

بعض قادة الشعوب نجوما تتلألأ في السماء، ويقذف بالبقية في سلة المهملات؟

أجبته قائلا: كيف تريد من مؤمن بالجدلية التاريخية أن يصدق مثل هذا الكلام!

****

الهجرة الرابعة

امتزجت أحداث هذه الهجرة بأحداث أخرى عشتها في الوطن، فبالرغم من تواصلها ثلاثة أعوام (1966-1969) فقد كنت على علاقة وطيدة بما جرى في البلاد.

عدت في ربيع 1965 بنية الاستقرار، وطي صفحات الهجرة فعينت مساعدا بمدرسة الأساتذة المساعدين، وقد مثلت غرفة الانتظار للعبور إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

كانت البلاد تعيش يومئذ أوج تجربة "الاشتراكية الدستورية" فانخرطت في صفوفها ولسان حالي يقول: بعد أن تهاوى الحلم الاشتراكي ذو الطابع الأممي ينبغي أن يتحول النضال من أجل دعم مبادئ العدالة الاجتماعية،

وتجاوز الإرث الاستعماري الثقيل، والإسهام في بناء مجتمع حديث يحقق أحلام أجيال من المناضلين في سبيل الاستقلال، والحرية، والعدل الاجتماعي، فكانت البداية في المستوى المحلي برئاسة فرع "التضامن الاجتماعي"، وتمثلت مهمته الأولى في إسناد المنح الدراسية لأبناء العائلات الفقيرة، ثم تحملت مسؤولية سياسية في مستوى الولاية، فمكنتني هذه التجربة في المستويين المحلي والجهوي من التعرف إلى معاناة الناس من جهة، ومشاكل البلاد، ومدى ضعف بنيتها الاقتصادية والاجتماعية من جهة أخرى، وتعرفت بالخصوص إلى حماسة المواطن وتضحيته في سبيل الوطن عندما تكون السلطة نظيفة وقريبة منه، فقد تطوع المواطنون لبناء المدارس، ومقاومة الأمية، ومساعدة البلديات الجديدة ذات الإمكانات المحدودة، وقد تعمقت هذه التجربة الاجتماعية عندما انتخبت رئيسا للمجلس البلدي بمدينة قليبية في مطلع سبعينات القرن الماضي.

ولما عهد إلي بالإشراف على الملحق الثقافي "أدب وثقافة" لجريدة "العمل" (1965-1966) سعيت أن أجعل منه رافدا ثريا من روافد التجربة "الاشتراكية"، فحاولت التنظير لمقولة الالتزام في الثقافة والفن مع الإفادة من تجربة بلدان المعسكر الشرقي التي حولت الالتزام إلى إلزام فنشرت سلسلة من المقالات في الملحق بعنوان "ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان" كشفت فيها عن حركة المثقفين المنشقين في الاتحاد السوفياتي، ومطالبتهم بالحرية.

إن تجربة "الاشتراكية الدستورية" كانت بالأساس ذا طابع برغماتي تواجه المشاكل المعقدة في عالم الفعل اليومي، ولكن زعيمها المناضل الكبير أحمد بن صالح شعر أنه لابد أن يرافقها جانب فكري تنظيري فأسس "لجنة الدراسات الاشتراكية" لتكون أول منبر فكري في المسيرة الطويلة للحزب الحر الدستوري التونسي الجديد،

وقد تحمست رفقة عدد من الجامعيين للانخراط في أعمالها، وأصبحت مقررا لها في مرحلة معينة، وعهد إلي بإعداد العدد التجريبي من مجلة حملت عنوان "المجتمع الجديد"، ولم تر النور بعد ذلك، وأذكر أن أحد مقالاتها يحمل العنوان التالي "الملكية وظيفة اجتماعية"، وهو عنوان يعبر فعلا عن رؤية المتحمسين للتجربة، ومن بين محاولات التنظير للتجربة تعليق يومي في جريدة "العمل" بعنوان "تأملات اشتراكية"، استمر أكثر من سنتين، وتوقف عندما لم يبق من "الاشتراكية الدستورية" إلا تأملاتي بعد أن سقطت التجربة مع سقوط أوراق خريف 1969.

****

بدأت الهجرة الرابعة في خريف 1966 لما تم تعييني في نطاق التعاون الرسمي بين تونس وألمانيا الاتحادية أستاذا بـ "معهد تاريخ وحضارة شمال إفريقيا"

بجامعة "قيزن" مع التدريس في الوقت ذاته بالمدينة الجامعية المجاورة "ماربورغ"، وقد مكنتني هذه الهجرة بالمقارنة في عالم الممارسة اليومية بين النظامين الألمانيين: النظام الشرقي والنظام الغربي، وتعرفت في الغربية إلى الفكر السياسي اليساري الألماني الحقيقي المتحرر من الدوغماتية التي رزحت تحت نيرها أثناء دراستي بالشرقية، تعرفت إليه عبر تأثري برواد مدرسة فرانكفورت، ويعد الفيلسوف الألماني المشهور اليوم "يورغن هابرماس" ممن تخرجوا على أيدي هؤلاء الرواد في الستينات، وقد كان لها دور خطير الشأن في الإعداد الفكري لانتفاضات 1968.

لما عدت إلى الوطن غداة انتهاء عملي بجامعة "قيزن" شعرت بأن استمرار العمل السياسي في صفوف الحزب الحاكم أصبح يمثل مشكلة، ويدعو إلى الريبة، وبخاصة بعد المحاكمات الطلابية 1968، وسقوط

التجربة "الاشتراكية"، ولكنه انسحاب تدريجي دون قطيعة، فاتجهت إلى العمل النقابي فأسست رفقة زملاء "نقابة التعليم العالي والبحث العلمي".

رحب بالفكرة المناضل النقابي المرحوم الحبيب عاشور، ولكنه طلب الحصول على الضوء الأخضر من مدير الحزب، وشاءت الصدف أن مدير الحزب كان يومئذ من فئة الحمائم وما أقلهم! وهاجم المحافظون في مؤتمر المنستير 1971 الأمين العام للاتحاد بحجة أنه سمح بتأسيس نقابة من "الشيوعيين"، والنظام يتوجس خيفة من نقابات التعليم، فأجاب الحبيب عاشور بأن منسق الهيئة التأسيسية هو "دستوري"، مفيدا من نضالي داخل الحزب غداة عودتي من ألمانيا الشرقية.

إن نضالي النقابي فتح لي الباب لأعيش تجربة ثرية، وأتعرف إلى طبيعة الصراع بين الاتحاد العام التونسي للشغل والسلطة، ولأقف على حقيقة ساطعة،

وهي أن السلطة كانت دائما مكرهة على التعاون مع الاتحاد حتى لا ينتفض الشارع، كما انتفض يوم الخميس الأسود (26 جانفي 1978)، وقد عشت خضم أحداثه، وقد دبرت بليل، وانتفض الشارع بعد سنوات قليلة فيما عرف بانتفاضة الخبز.

عاش الاتحاد في فترات معينة ضربا من الغزل مع السلطة، ولكنه كان غزلا ظاهريا ومؤقتا، أما في العمق فقد تواصل التوتر، وبخاصة في الحقب التي أصبح فيها للاقتصاد الطفيلي تأثير في صنع القرار السياسي.

وأود التأكيد في هذا السياق أن قدرة الاتحاد على الصمود رغم محاولات التصديع والتهميش يعود أساسا إلى التراث العريق للحركة العمالية التونسية من جهة، وإلى التضحيات الكبرى التي قدمها النقابيون في معركة الحرية والاستقلال، بل إن الاتحاد هو الذي قاد حركة

التحرر الوطني لما حاول الاستعمار شل قيادتها في مطلع 1952.

****

نجحت بعد عنت شديد أن أحضر يوما من أيام المحاكمة المهزلة، محاكمة المناضل الكبير أحمد بن صالح، فأمعنت النظر في أحد فصول المسرحية الذي مثل صباح ذلك اليوم: جلاوزة يجلسون فوق منصة القضاء، زاعمين زورا وبهتانا أنهم يدافعون عن قيم الجمهورية، ويقف أمامهم متهما بالخيانة العظمى، وذنبه الوحيد أنه اجتهد إلى حد التصوف في تطبيق برنامج إصلاحي للخروج بالبلاد من التبعية والتخلف.

إن مأساة المناضل الكبير أحمد بن صالح هو إيمانه الذي يبلغ به حد التصوف.

إزداد عزوفي عن النشاط ضمن صفوف الحزب، وأصبحت أتعاون مع تيار جريدة "الرأي" إلى جانب العمل النقابي لأجد نفسي في مؤتمر المنستير الأول (أكتوبر 1971) متحمسا لنصرة التيار الديمقراطي، مؤمنا مع عدد من المناضلين بإمكانية تعدد المنابر داخل الحزب لنفهم في مرحلة لاحقة أن التعددية داخل النظم الشمولية خرافة.

إن انغماسي في العمل السياسي لم يبلغ حد الاحتراف من حسن الحظ، وبذلك استطعت أن أحافظ على هامش من الحرية، وأن أصدع بآرائي النقدية، ولم أضطر يوما ما أن أطيع الأوامر، وأطبقها بدون نقاش، أو أسمع بذاءة بعض حكام المجتمعات المتخلفة، كما بلي بذلك كثير من الراكضين وراء الركب السلطاني.

إنني أومن نتيجة التجربة بضرورة الإبقاء على شعرة معاوية، وبخاصة في المجتمعات العربية بشرط ألا

ينزل النظام السياسي في إدارته لشؤون المجتمع تحت الخط الأحمر، قد يتساءل القارئ عن حدود هذا الخط الأحمر، إنها خطوط واضحة:

أ- كبت الحريات، وتكميم أفواه الناس.

ب- تفشي ظاهرة الفساد على حساب المصلحة العامة.

ج- التبعية نحو الخارج للوصول إلى السلطة، أو للبقاء فيها.

****

لما سقط المشروع الوطني في المجالين التنموي والسياسي، وتلبدت الغيوم في أفق المشروع العروبي القومي، وتبوأ الصدارة في الوطن العربي زبانية السياسة، وسماسرة الاقتصاد اتضحت أهمية نشر الفكر الحداثي العقلاني، والتصدى لمظاهر الردة والرداءة التي

بدأت تغزو الفضاء العربي ابتداء من ثمانينات القرن الماضي فحاولت أن أسهم إسهاما متواضعا في نشر قيم هذا الفكر عبر منبرين مؤثرين: منبر الندوات السياسية والفكرية العربية، ومنبر الإعلام فكتبت في "الحياة"، وفي "الزمان"، وفي "الزمان الجديد"، وفي مجلة "العربي"، وكلها دوريات واسعة الانتشار، أما الندوات فقد التأمت بتونس، والقاهرة، ودمشق، وعمان، والكويت، والرباط، والجزائر.

حاولت كذلك رفقة عدد من المثقفين العرب التأثير عن طريق مؤسسات المجتمع المدني فأسسنا "المجلس القومي للثقافة العربية" في باريس، و "منتدى الفكر العربي" في عمان، وكنا واعين أن نجاح هذه المشروعات سيكون محدودا، ولكننا أردنا التعبير عن وجود قوى عربية لم تلق السلاح أمام ما يحاك ضد مصلحة الشعوب العربية في الداخل والخارج، وحاولت أن تصل كتبي إلى

أكبر عدد ممكن من القراء العرب، فصدرت في تونس، والرباط، والقاهرة، وبيروت، ودمشق، وعمان، والكويت، وهي تتناول قضايا الفكر العربي الحديث، والمجتمع المدني، والعولمة، والحداثة، والحرية.

سعيت للإفادة من وسائل الاتصال الحديثة لنشر القيم التي تذود عنها فئة واسعة من النخبة العربية بشتى نزعاتها فأسست بمدينة عمان رفقة عدد من المثقفين العرب تيار "الديمقراطيون العرب"، وأصدر التيار النص التالي:

"يعيش النظام السياسي العربي اليوم أزمة بنيوية خانقة تتجلى في التناقض بين بنية المجتمع التي تتطور وفق حركة موضوعية، وبنية سلطة ثابتة ومتخلفة في جل الحالات.

دفع هذا الوضع المتردي بقوى سياسية واجتماعية، ونخب فكرية لاتخاذ مواقف متنوعة تجاه هذا الوضع المتأزم، هادفة إلى إصلاحه. ولما كانت الديمقراطية مطلبا حقيقيا، وحاجة ضرورية لتجاوز ذلك التناقض بين السلطة والمجتمع التقت بمدينة عمان يومي الثامن والتاسع من مايو/ أيار 2006 مجموعة من الجامعيين، والمفكرين، والمثقفين، والإعلاميين، ورجال الأعمال العرب، وأعلنت تأسيس تيار فكري وطني ديمقراطي يسعى من أجل تحقيق الأهداف التالية:

أولا- نشر الفكر العقلاني الحداثي، والتصدي لجميع مظاهر الردة والرداءة في الحياة الفكرية والثقافية العربية الراهنة.

ثانيا- ترسيخ أسس الفكر الديمقراطي، ودعم جميع التيارات الديمقراطية الجدية، والمستقلة عن النظم العربية

من جهة، وعن التبعية للخارج من جهة أخرى، ودعم الممارسة الديمقراطية.

ثالثا- إحياء قيم النضال في سبيل الحرية، ومن أجل تأسيس الدولة المدنية الحديثة، وإحياء هذه التقاليد في تراث الفكر النهضوي العربي، والعمل على نشرها عبر وسائل الاتصال الحديثة.

رابعا- العمل على تنبيت المفاهيم التي أصبحت اليوم كونية مثل الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والحريات العامة، وحقوق المرأة، والمجتمع المدني، والعدالة الاجتماعية في التربة العربية.

خامسا- ينبذ "الديمقراطيون العرب" جميع مظاهر تسخير المثقف العربي لأهداف سلطوية، ويعتبرون أن كل مثقف خدم ركاب سلطة سياسية مستبدة،

ومعادية للحريات العامة هو مثقف تنكر لقيم الفكر الإنساني الحر، وسقط.

سادسا- يرفضون التعاون مع التيارات الفكرية ذات الصبغة العنصرية، أو الطائفية، أو النزعة العرقية.

سابعا- يؤمنون بأنه لا بديل عن الحوار مع الأخر، ولكنهم يؤمنون في الوقت ذاته بان الحوار الحقيقي ينبغي أن يتم بين مختلف التيارات السياسية، والفكرية، ويؤمنون كذلك بضرورة التعاون مع مؤسسات المجتمع المدني العالمية المعروفة باستقلالها عن النظم في بلدانها من جهة، وبتضامنها مع قضايا شعوب الجنوب من جهة أخرى.

ثامنا- يناهض التيار من موقعه الديمقراطي الهيمنة الأجنبية، ويتصدى بالخصوص للمشروع

الأمريكي الصهيوني في الوطن العربي، ويقف مناصرا لقوى المقاومة العربية للاحتلال بشتى أشكاله.

ويتوجه بالنداء إلى جميع القوى المثقفة من كافة التيارات الوطنية، والتقدمية، والإسلامية المستنيرة للدفاع عن الحريات العامة، ورفض قوى التسلط الداخلي، والعدوان الخارجي.

تاسعا- يعلنون أن الانتساب إلى التيار مفتوح أمام كل المثقفين العرب المؤمنين بالأهداف المذكورة، والذين تتوفر فيهم الشروط الدنيا التالية:

أ- ألا يكونوا قد تحملوا مسؤولية في جهاز قمعي من أجهزة السلطة العربية.

ب- ألا يكونوا من أنصار التطبيع مع الكيان الصهيوني، أو المتعاونين مع قوى أجنبية معادية للمصلحة الوطنية، أو القومية.

ج- أن يكونوا من المؤمنين بالعمل الديمقراطي السلمي، وينبذون العنف بجميع أشكاله.

ويؤكدون في الختام أن جماعة "الديمقراطيون العرب" تمثل تيارا فكريا مستقلا عن جميع المؤسسات الرسمية، ومستقلا كذلك عن الأحزاب السياسية، وهذا لا يمنع من التعاون معها في ظروف معينة، وحسب المعايير التي حددها بيان التأسيس هذا، مع الملاحظة أن التيار يبقى فكريا دون هيكلة قانونية قد تعيق نشاطه، ويمكن أن يتعاون في مستوى التسيير، والتنسيق بين أعضائه مع أي منظمة ثقافية عربية عرفت باستقلالها عن السلطة، كما يعلنون أن طريقة التواصل بين المنتسبين إلى التيار ستتم عبر البريد الالكتروني، وموقع الانترنت".

****

إنني حريص في نهاية هذا النص أن أبدي الملاحظات التالية، وهي تتصل بالمرحلة البورقيبية في تاريخ تونس المستقلة:

أولا- إن المرحلة ما تزال في حاجة إلى الدرس والبحث الرصين، وقد آن الأوان لتمكين الباحثين من الإطلاع على جميع الوثائق، وبخاصة الملفات القضائية، والملفات الأمنية.

لا يختلف اثنان من المواطنين حول الدور القيادي لبورقيبة زعيما، ورجل الدولة، ولا يختلفان كذلك حول المكاسب التي حققها الشعب التونسي بقيادته، ولكن الأخطاء جسيمة، بل هي مفزعة في بعض الحالات، وبخاصة لما سخر أجهزة الدولة الوطنية لتنفيذ مخططات القمع، بل قل الاغتيال السياسي.

أفاد الزعيم بورقيبة من زعامته لاتخاذ قرارات جريئة وريادية مثل مجلة الأحوال الشخصية، وقرار نشر التعليم وتوحيده، وتوحيد القضاء، وتصفية الاستعمار الفلاحي، وجلاء القوات الأجنبية، ولكنه سخرها في الوقت ذاته ليؤسس نظاما سياسيا تسلطيا قمع كل أصحاب الرأي المخالف، فهو الذي أسس المحاكم الخاصة، إذ لم تمض على توليه الوزارة الأولى حتى بعث المحكمة العليا (19-4-1956) ليحاكم رفاق الأمس، وهو الذي قمع الحركات الطلابية، وزج في السجون بإعداد غفيرة من خيرة الشباب الطلابي.

يحتفل الشعب الفرنسي هذه الأيام بذكرى مرور أربعين سنة على انتفاضة ماي الطلابية 1968، وتأثيرها السياسي، والثقافي، والاجتماعي في المجتمع الفرنسي، وشاءت الصدف أن تسبقها انتفاضة طلابية تونسية لا تقل شأنا وتأثيرا عن الانتفاضة الباريسية. ينشرون في ذكرى

انتفاضتهم الكتب، ويخصصون لها الأعداد المتميزة من الدوريات، والبرامج الفضائية، أما الانتفاضة التونسية فالتعتيم عليها كاملا.

إن انتفاضة مارس 1968 أسهمت إلى حد كبير في الدفاع عن الحرية، وفي إماطة اللثام عن الوجه القمعي للنظام.

عاش الفيلسوف الفرنسي الشهير ميشال فوكو أحداث انتفاضة تونس، وعبر في حواره مع "د.إريبون" (DIDIER ERIBON) عن تأثره بها، وربط بينها وبين الانتفاضات الطلابية التي عرفتها أوروبا في ربيع 1968.

عندما يحاول الدارس أن يتعرف إلى سمات الجهاز التسلطي البورقيبي، وبخاصة بعد صدور بعض

الكتب المتضمنة لشهادات أسر من عذب وحوكم يقف على حقيقتين:

أ- الأحكام تملى على قضاة المحاكم الاستثنائية.

ب- كثير من المسؤولين في القمة، وبينهم أعضاء في الديوان السياسي كانوا لا يعرفون شيئا كثيرا عما تعرض له كثير من المواطنين من تنكيل وتعذيب، وهذا لا يبرئهم من المسؤولية، فهم ضالعون إلى الأذقان فيما عرفته المرحلة من مظالم، وحتى أولئك الذين نشروا مذكرات لم يدينوا الظاهرة، ولم يكن لأكثرهم الجرأة والنزاهة الأخلاقية للقيام بنقد ذاتي، وكي لا نعمم في أحكامنا، ونظلم أصحاب المواقف الوطنية الجريئة، فلا بد من التذكير بمواقف أولئك الرواد الذين رفعوا أصواتهم في وجه الحاكم بأمره، وقالوا: لا للحكم الفردي المطلق، وهو قد عرفوا جيدا ماذا كان يدور في الزوايا من خبايا

لأنهم كانوا قريبين من صنع القرار، وأسهموا في معركة الاستقلال، ثم في بناء الدولة الوطنية.

نذكر الأجيال الجديدة بأسماء بعض هؤلاء الرواد: أحمد التليلي، أحمد المستيري، راضية الحداد، حسيب بن عمار، الحبيب عاشور.

ينبغي على الدارس الموضوعي أن لا يخلط في نقده للنظام السياسي البورقيبي، وبخاصة بين إبراز النقطة السوداء فيه: غياب الحريات العامة وبين الاعتراف بالدور التاريخي الكبير للزعيم، وقد لمحت إلى أن للزعماء الكبار من طينة الحبيب بورقيبة عثرات، وخصوصا عندما لا يقررون الرحيل في الوقت المناسب.

المؤرخون والمحللون السياسيون يعددون قراراته السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولكن المواطن العادي يتذكر شيئا واحدا :

هذا الزعيم الكبير الذي قاد حركة التحرر الوطني طيلة فترة قاربت الربع قرن ، وأسس الدولة الوطنية الحديثة ليتزعمها ثلاثة عقود من الزمن :

عاش فقيرا، ومات فقيرا، فقد رحل ولم يترك إلا نصيبه في إرث دار الجدود والآباء!

****

أما بالنسبة لأولئك الذين كانوا بعيدين عن صنع القرار فقد آن الأوان لنا معشر المنتمين إلى ذلك الجيل، وقد عاش في مرحلة الصبا نضال حركات التحرر الوطني، ثم تحمس لبناء الدولة الوطنية، وهتف طويلا لتجاربها الصالحة والطالحة أن نكون أكثر موضوعية، وأشد جرأة من بعض السياسيين فنقوم بنقد ذاتي، ونكشف بكل أمانة الأسباب التي جعلتنا نبارك تجارب سياسية وتنموية مفروضة، ونشارك في نحت الأصنام الجديدة.

كتبت مرة عن فشل التجربة الاشتراكية، التي تحمست لها فقلت:

كان لا بد أن تفشل ليس لأنها أجهضت نتيجة تحالف قوى داخلية مع قوى خارجية، بل أساسا لأنها فرضت من فوق، واعتمدت في عالم الفعل والممارسة على جهاز بيروقراطي متعسف، وطبقت على الضعفاء فأسقطها الأقوياء قبل أن تمس مصالحهم.

كيف يمكن أن تنجح تجربة "اشتراكية" في ظل نظام الحزب الواحد، وهو نظام لا يختلف كثيرا عن ذلك النظام الذي تعرفت إليه عن كثب في بلدان أوروبا الشرقية.

لا بد أن أعترف بأنني أنتسب إلى فئة من المثقفين العرب التي ضحت بالحرية في سبيل التخلص من التبعية إلى الخارج، وتحقيق التنمية، والعدالة الاجتماعية فتبين

فيما بعد أننا دفعنا ثمنا باهظا مقابل إهمال قضية الحريات، ودون أن نحقق التنمية المستقلة.

وهنا يطرح نفسه السؤال التالي:

كيف التكفير عن الذنب؟

بمواصلة الدفاع عن الحريات العامة إلى آخر رمق.

سيرة ذاتية موجزة

الحبيب الجنحاني

- باحث وأستاذ التاريخ الاقتصادي والاجتماعي بالجامعة التونسية.
- أستاذ زائر لعدد من الجامعات العربية والأجنبية.
- نشر عددا من الكتب في تونس، والرباط، والقاهرة، وبيروت، ودمشق، والكويت، وعمان.
- خبير غير متفرغ بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سابقا.
- تحصل على جوائز تشجيعية متعددة.
- نشر مئات الدراسات والمقالات في الدوريات التونسية والعربية من أبرزها: "حوليات الجامعة التونسية"، "الندوة"، "الصباح"، العمل، "الحرية" (مكان الصدور تونس)، "عالم الفكر"، "العربي"، (مكان الصدور

الكويت)، "الحياة"، "الزمان"، "الزمان الجديد" (مكان الصدور لندن).

- أشرف على ملحق "أدب وثقافة" لجريدة "العمل" (1965-1966).
- رئيس تحرير "الحياة الثقافية" سابقا.

للاطلاع على دراساته ومقالاته المنشورة في الدوريات، وكذلك الإحالة على إنتاجه الفكري:
راجع موقع: (Google)
الحبيب الجنحاني
(بحث - Recherche)

نشاطه ضمن مؤسسات المجتمع المدني تونسيا، عربيا، ودوليا:

- عضو الهيئة التأسيسية لنادي القلم- تونس.
- رئيس فرع "التضامن الاجتماعي"- قليبية سابقا.
- رئيس ودادية التونسيين بألمانيا (1966-1969).

- مؤسس، وعضو الهيئة المديرة الأولى لاتحاد الكتاب التونسيين (1971/12/26).
- مؤسس، ورئيس الجمعية التونسية للتاريخ والآثار سابقا.
- مؤسس وعضو الهيئة الأولى لنقابة التعليم العالي والبحث العلمي التابعة للاتحاد التونسي للشغل.
- مؤسس، وعضو المكتب الدائم لاتحاد المؤرخين العرب، (1975-1985)، بغداد.
- عضو عامل بمنتدى الفكر العربي، عمان.
- عضو مؤسس للمجلس القومي للثقافة العربية، باريس 1984.
- عضو باتحاد المؤرخين الألمان.
- عضو "جمعية أصدقاء لوموند ديبلوماتيك" (Les Amis du Monde diplomatique) باريس.

- عضو منظمة "أتاك" (ATTAC) الفرنسية المناضلة من أجل عولمة بديلة.
- مؤسس تيار "الديمقراطيون العرب"، عمان، 2006.
- ساهم في حركة التحرر الوطني التونسية، وناضل سياسيا ونقابيا بعد استقلال تونس.

أبــرز مـؤلـفـاتـه

- القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، تونس 1968.
- من قضايا الفكر، تونس 1975.
- المغرب الإسلامي: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1978.
- دراسات مغربية، بيروت 1980.
- التحول الاقتصادي والاجتماعي في مجتمع صدر الإسلام، بيروت 1985.

- دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي، بيروت 1986.
- الحركات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي (بالاشتراك)، بيروت 1987.
- محمد باش حانبه: رائد من رواد الحركة الوطنية التونسية، 1989.
- دراسات في الفكر العربي الحديث، بيروت 1990.
- العولمة والفكر العربي المعاصر، القاهرة 2002.
- الكويت بين الأمس واليوم، الكويت 2005.
- محرر (بالاشتراك) لمجلد الفكر التربوي العربي الإسلامي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1987.
- المجتمع العربي الإسلامي: الأسس الاقتصادية والاجتماعية، الكويت 2005.

- المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في الوطن العربي، تونس، سبتمبر 2005، نشر بتونس، والرباط، وعمان.
- دراسات في الفكر والسياسة، تونس 2006.
- الحداثة والحرية، تونس 2007.

ملحق الصور

صور من مرحلة الدراسة



في مصلحة الآثار بالعطارين رفقة المرحومين حسن حسني عبد الوهاب، ومصطفى سليمان زبيس ترحيبا بالضيف صلاح الدين المنجد الدمشقي مدير معهد المخطوطات العربية التابع للجامعة العربية يومئذ. وقد سلم إلى الزعيم بورقيبة رئيس الحكومة رسالة من الأمين العام للجامعة العربية (ربيع 1956).



في مصلحة الآثار بسوق العطارين ويظهر في الصورة من اليمين إلى الشمال مصطفى سليمان زبيس، وأخوه محمود، وزين العابدين السنوسي، والمؤلف، والضيف خير الدين الزركلي الدمشقي صاحب "الأعلام" والشيخ الشاذلي النيفر، والتأم اللقاء ترحيبا بالأستاذ الزركلي. وقد حضر مؤتمر الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد بمدينة صفاقس (أكتوبر 1955) مندوبا عن المملكة العربية السعودية.



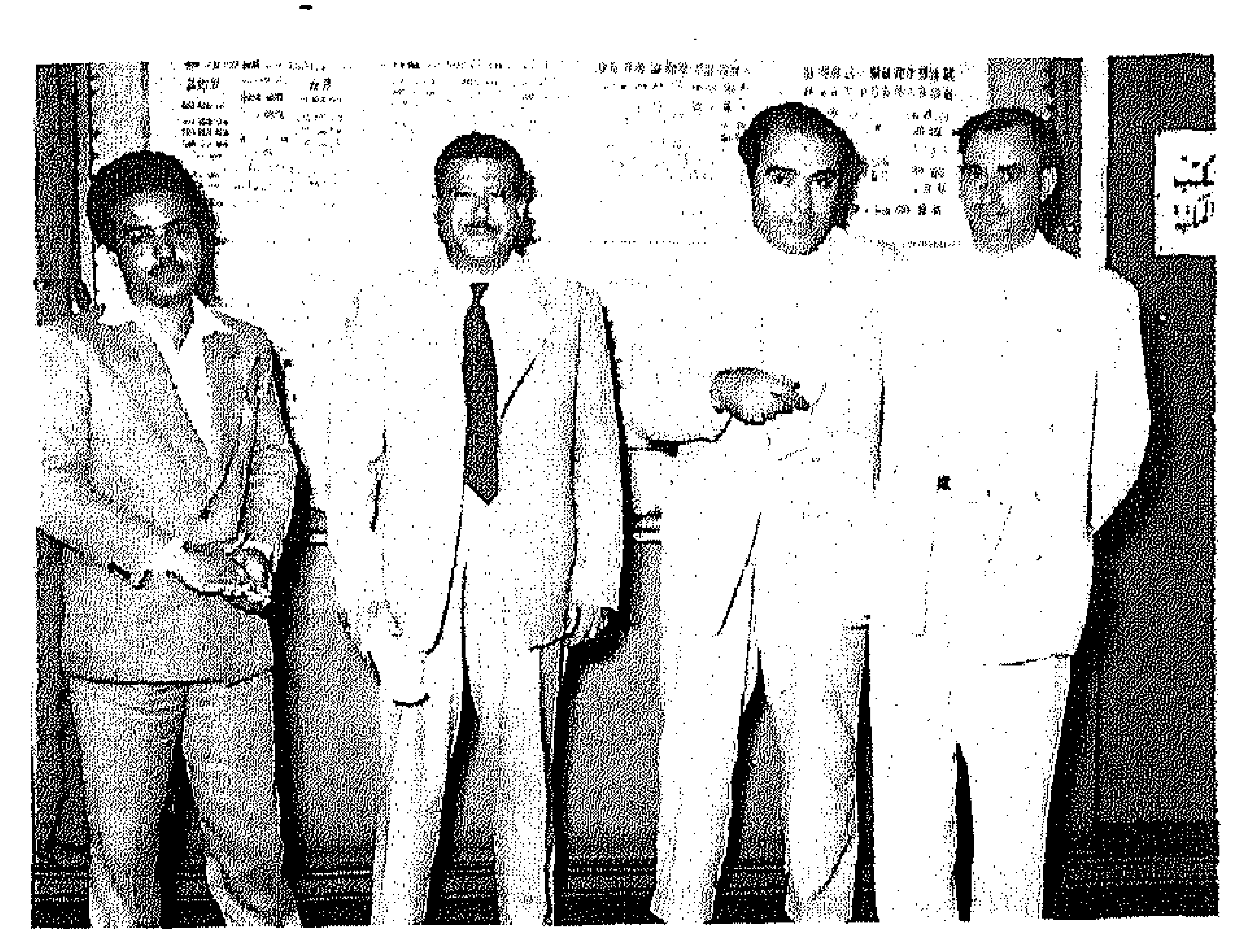
في زيارة لإحدى المكتبات بجامعة موسكو (1956). ويظهر في الصورة المرحوم البشير النابلي.



أمام جامعة موسكو. ويظهر في الصورة من أعضاء الوفد محمد المصمودي صاحب دار الجنوب. ومحسن حشيشة. وحمادي بن مصطفى.



مشاهدة مقابلة كروية بملعب لينين في موسكو.



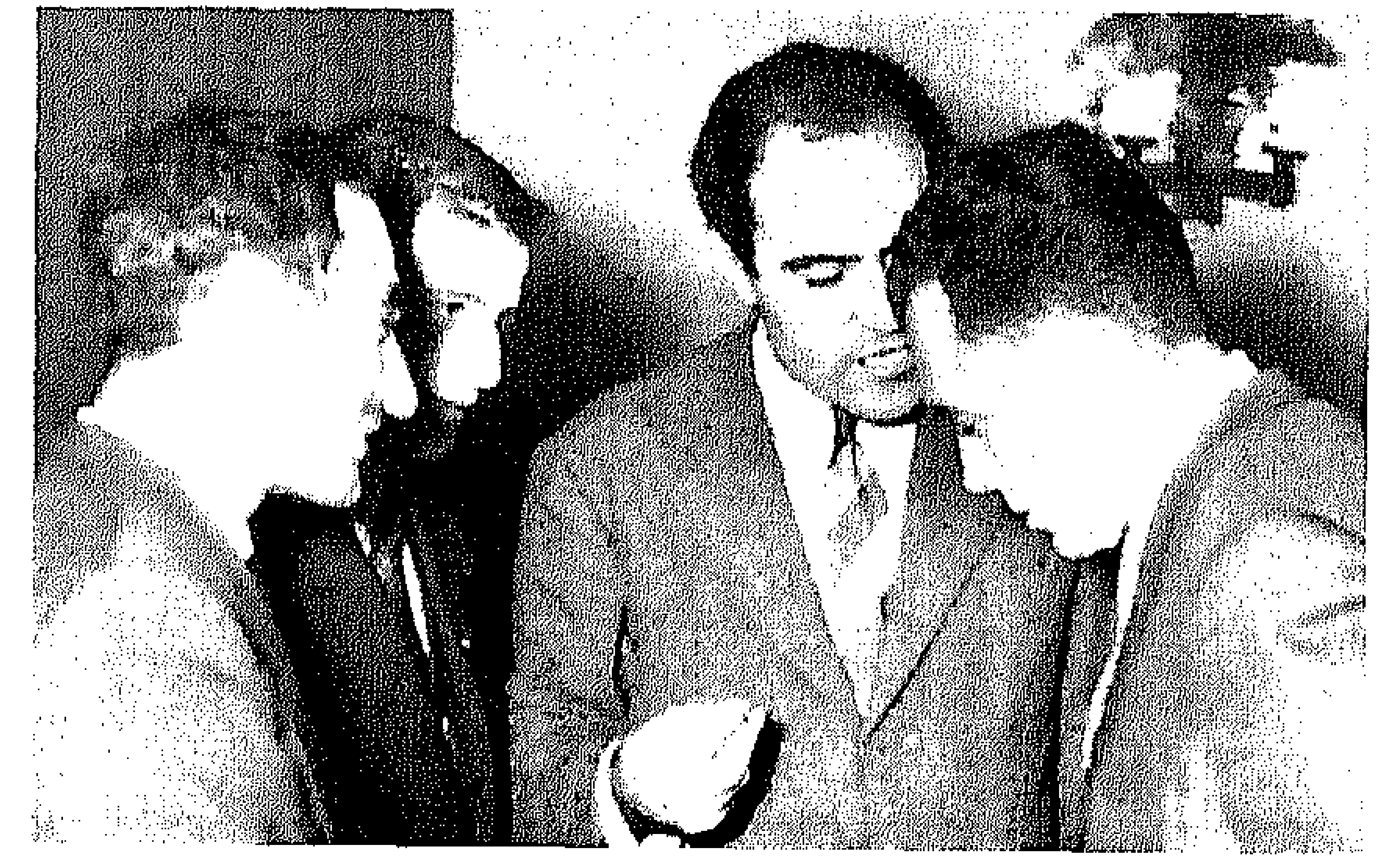
إستقبال المؤلف بالمركز الثقافي السوفياتي بالقاهرة (صيف 1957). يقف على شماله مدير المركز، وهو أستاذ بمعهد الإستشراق بجامعة ليينيغراد، وقد تعرف إليه المؤلف بمناسبة زيارته للمعهد 1956.



في إحدى قاعات التدريس بجامعة لايبزيغ.



في إحدى جامعات مكتبات جامعة لايبزيغ



يتحدث مع وزير التعليم العالي بألمانيا الديمقراطية.



يتلقى التهاني بمناسبة الإحتفال بعيد الإستقلال. وقد نظمه بصفته ينوب الإتحاد العام لطلبة تونس، ويقف إلى جانبه الطالب محمد الهادي حجي من مدينة بنزرت.



يقف إلى جانب المرحوم الأديب مصطفى الفارسي بمناسبة فوز أحد الأفلام التونسية في الأسبوع الدولي للأفلام القصيرة والوثائقية. لايبزيغ 1961.



في زيارة إلى المعتقل النازي "بوخن فالد"، ويظهر في الصورة سياج المعتقل.



صورة من نشاطه الإعلامي بإذاعة برلين.

صــور بــاريسية



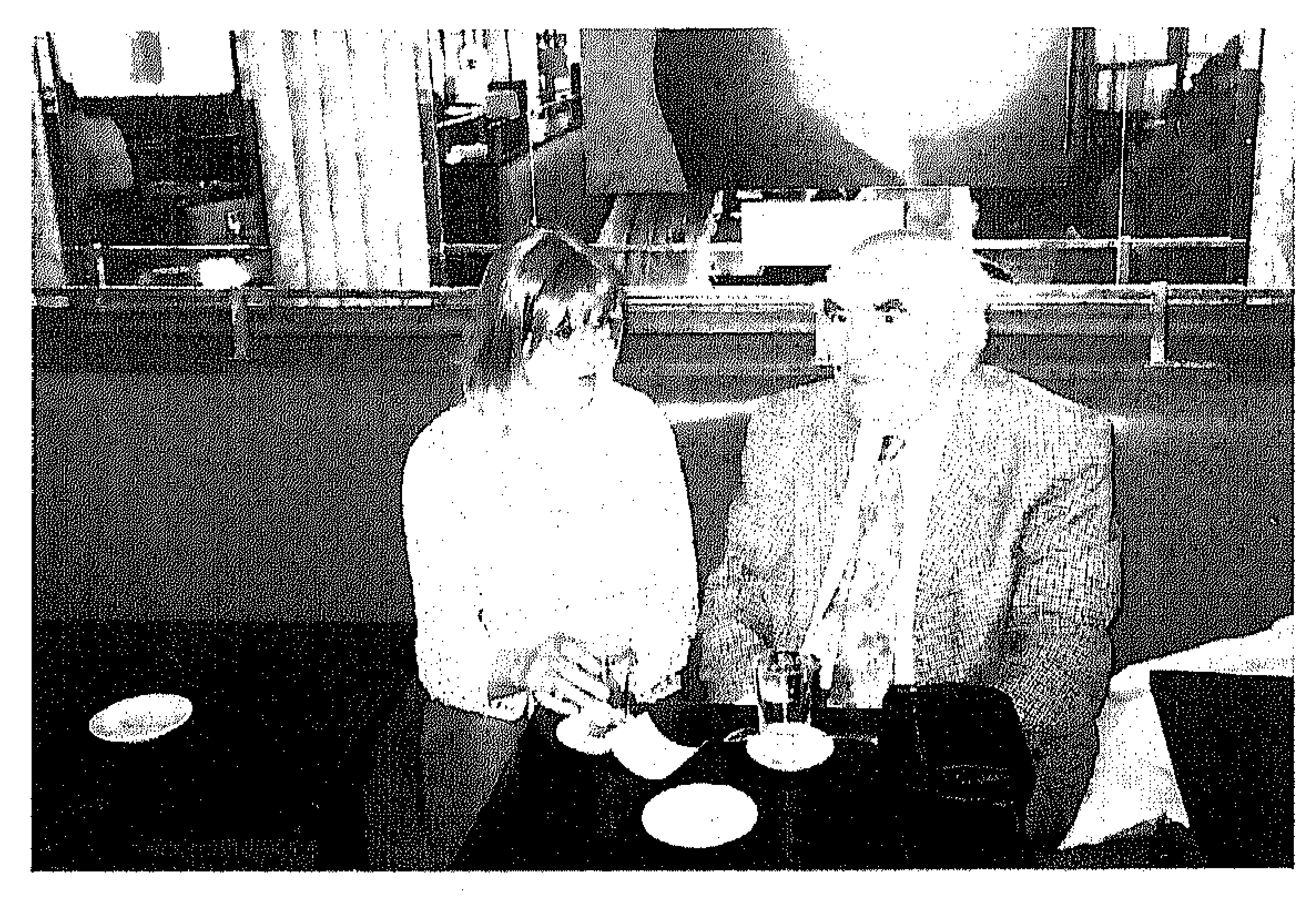
في مقهى "كابولاد" بالحي اللاتيني، ومعه في الصورة من اليمين إلى الشمال الأسعدالزين، محسن حشيشة، الشاذلي بوزكورة.



في ساحة السربون رفقة المرحوم الدكتور عز الدين مبارك.



في الحي اللاتيني بالقرب من حديقة "لوكسبورغ" رفقة طالبات وطلبة تونسيين.



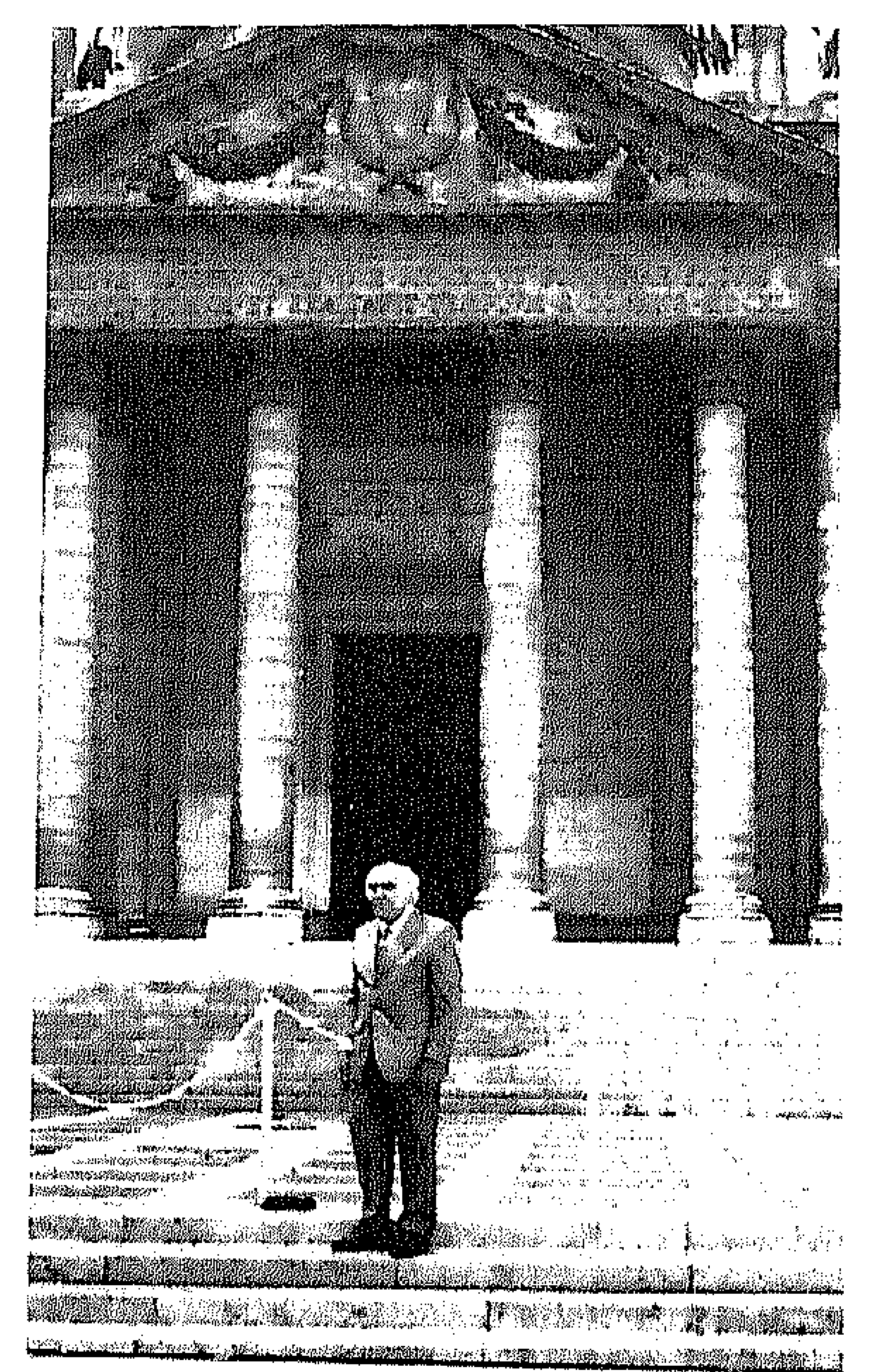
في مقهى "فلور" بحي سان جرمان بمناسبة احتفاله بعيد ميلاده السبعين.



أمام مقهى "فلور".



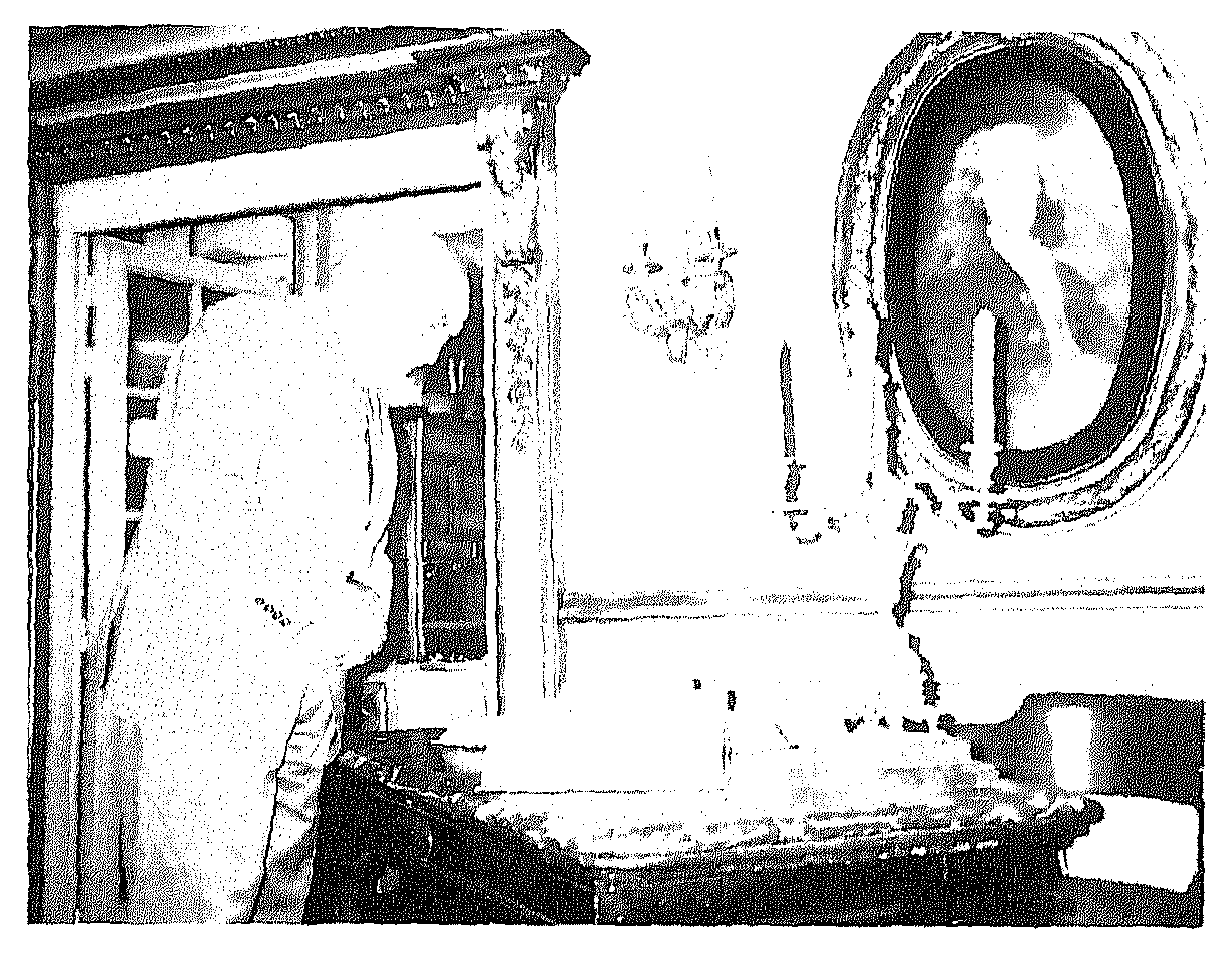
في ساحة "مومارتر".



في ساحة السربون.



في مدخل "كولاج دوفرانس".

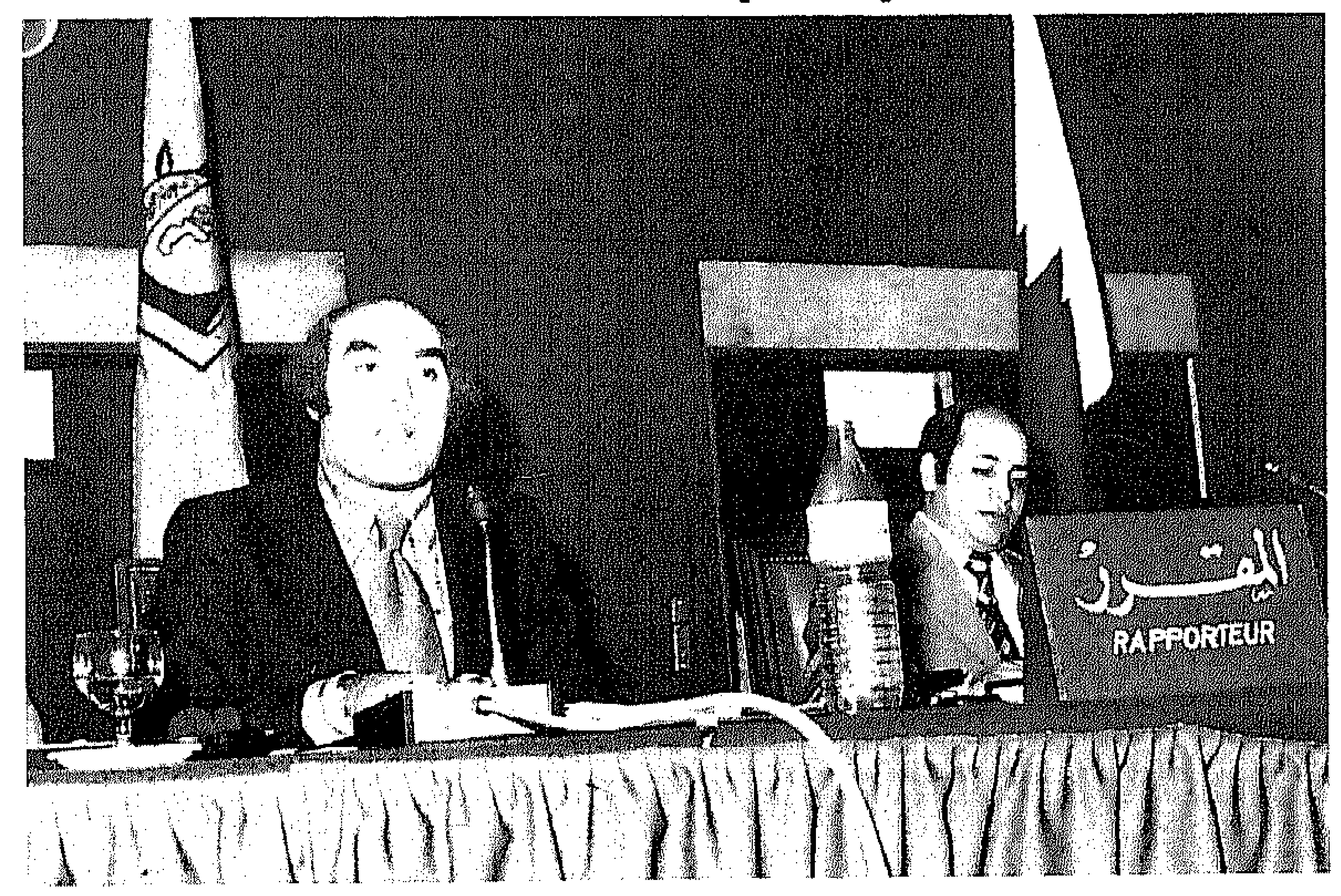


يقف معنا النظر في بعض مخطوطات "فولتير" بالمقهى الأدبي الباريسي الشهير "بروكوب" (le procope). وقد أسس في نهاية القرن السابع عشر، وأصبح ملتقى الكتاب في القرن الثامن عشر، وكان له دور خطير الشأن في الثورة الفرنسية.

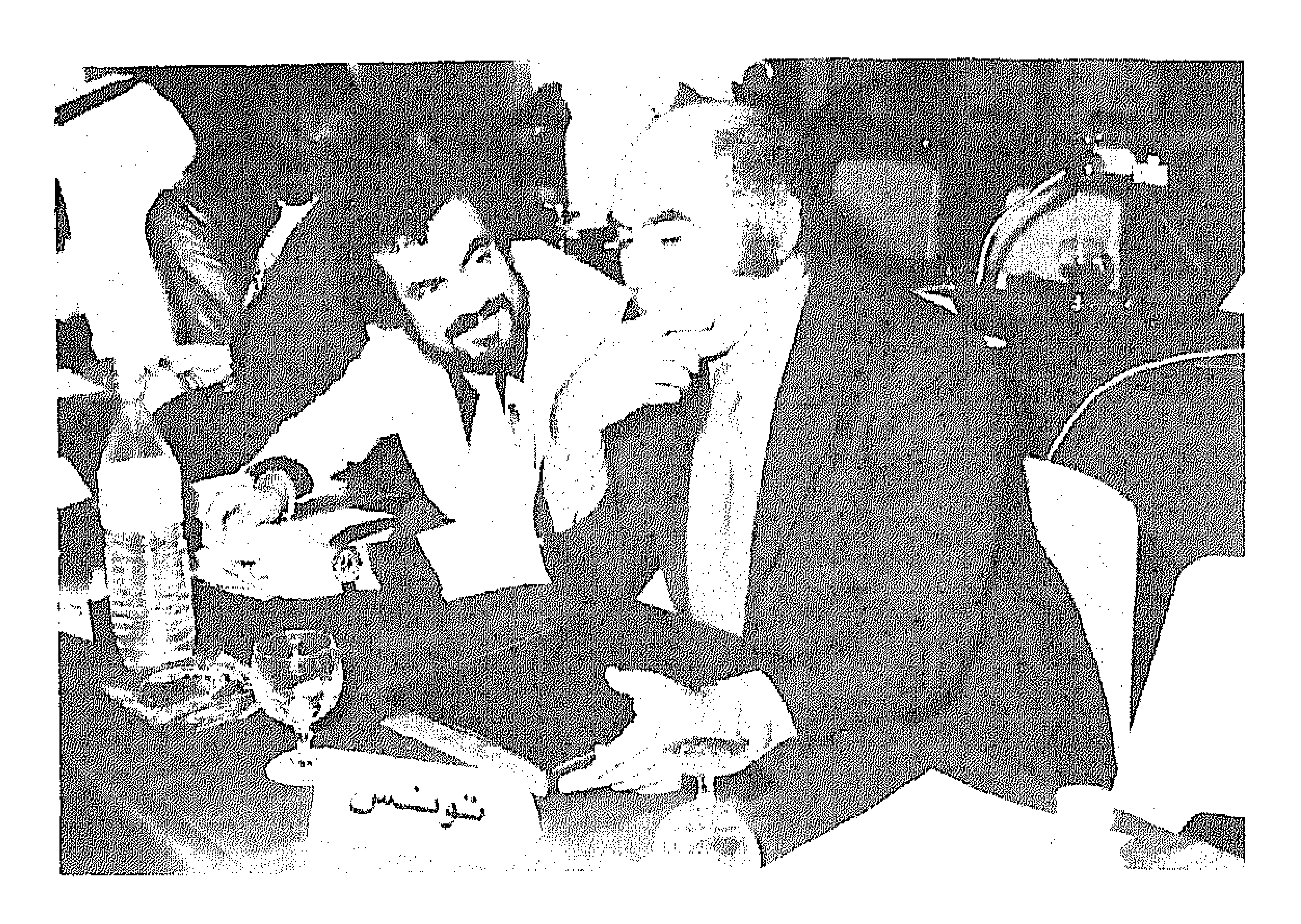
صور من مشاركته في بعض الندوات



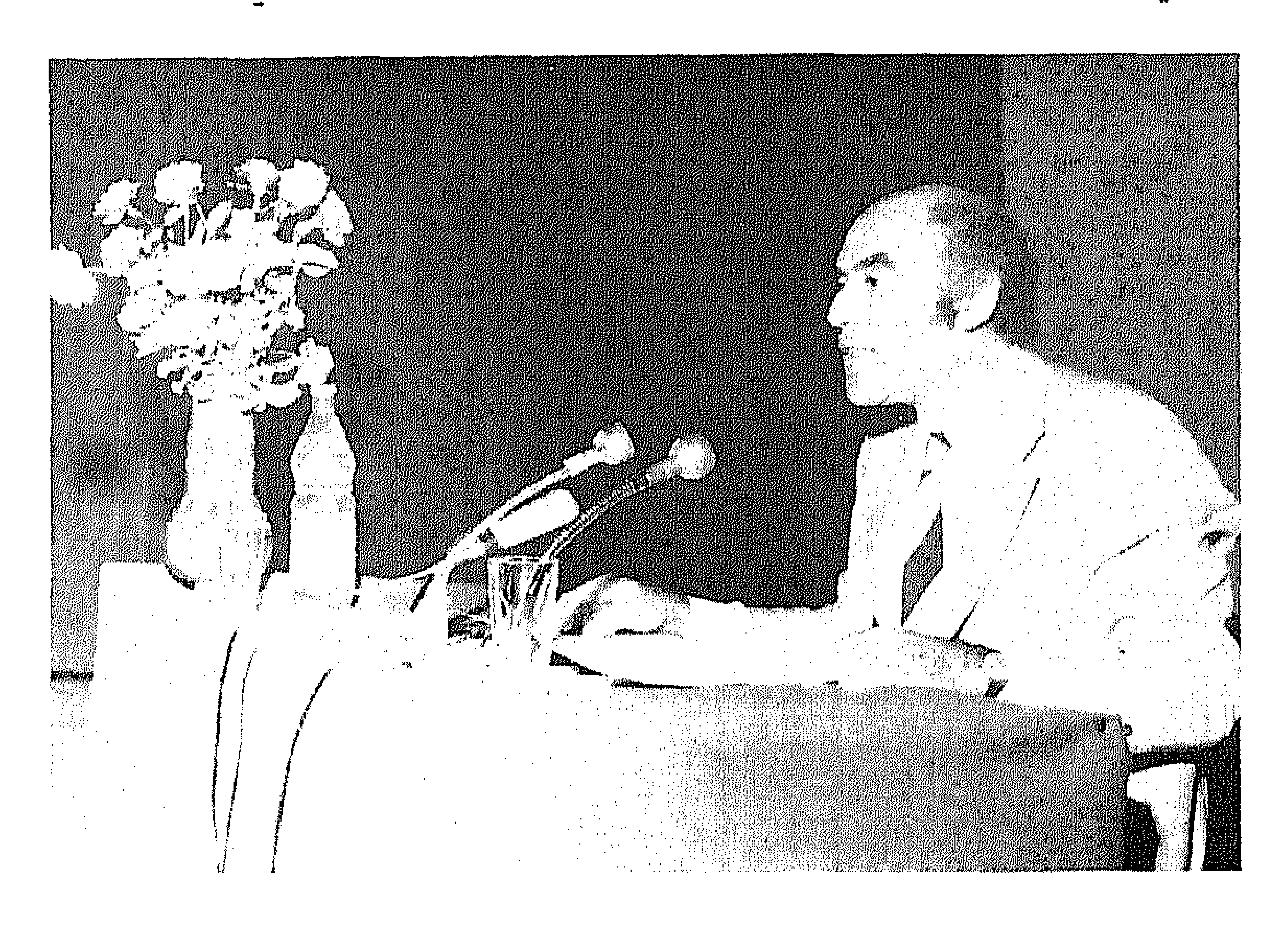
يحاضر في مقر إتحاد كتاب المغرب بالرباط. وعلى يمينه رئيسه يومئذ الروائي المغربي المعروف محمد برادة.



في إحدى ندوات إتحاد المؤرخين العرب.



في إحدى الندوات التاريخية. وعلى يمينه الأستاذ الراضي دغفوس.



يلقي محاضرة فكرية بإحدى الندوات التونسية.



يرأس إحدى الجلسات بندوة عربية.



في المؤتمر القومي الأول بتونس، وبجانبه الكاتب، والمفكر القومي المرحوم محمد أحمد خلف الله.



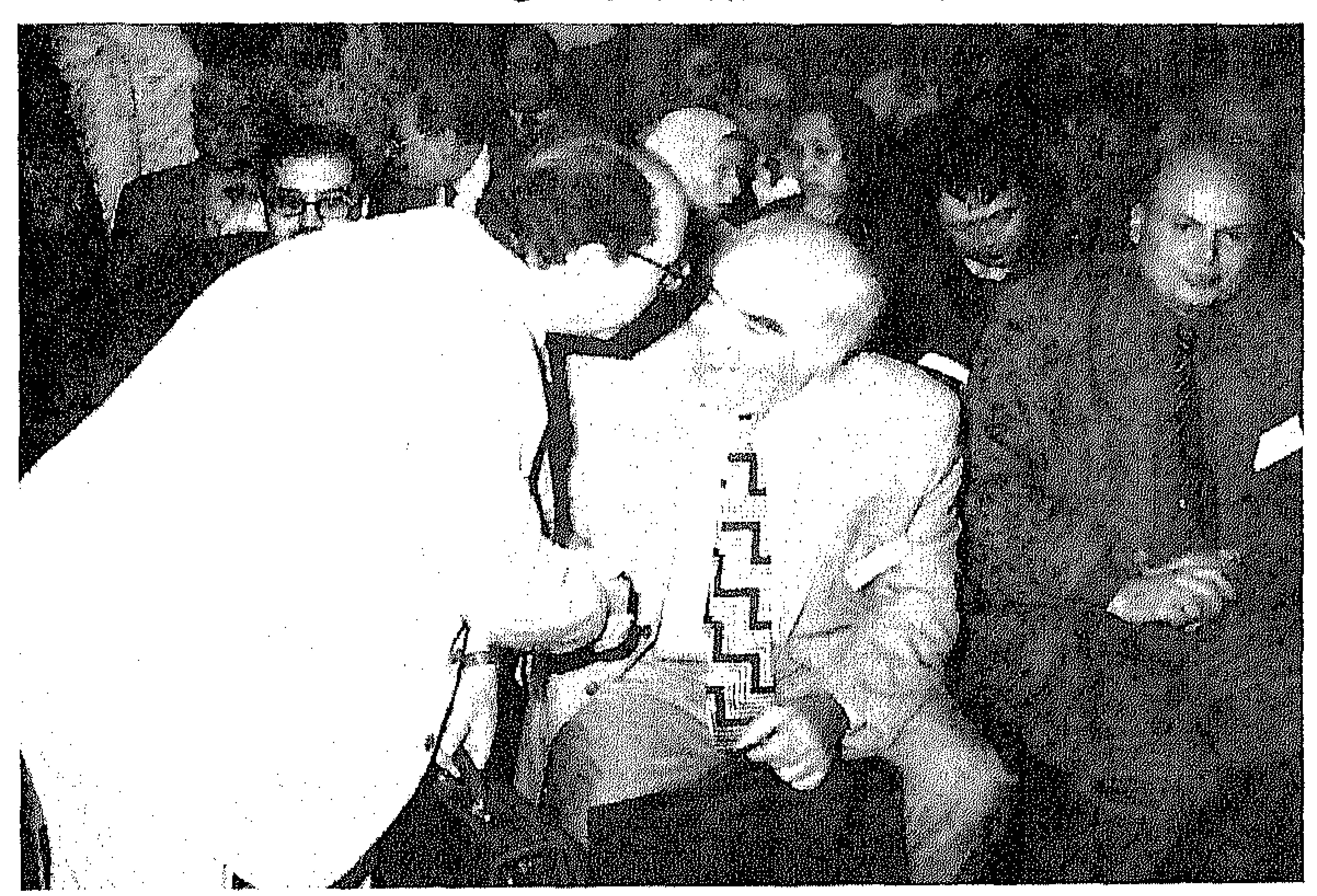
في المؤتمر القومي الأول بتونس، وبجانبه المفكر القومي المرحوم منح الصلح.



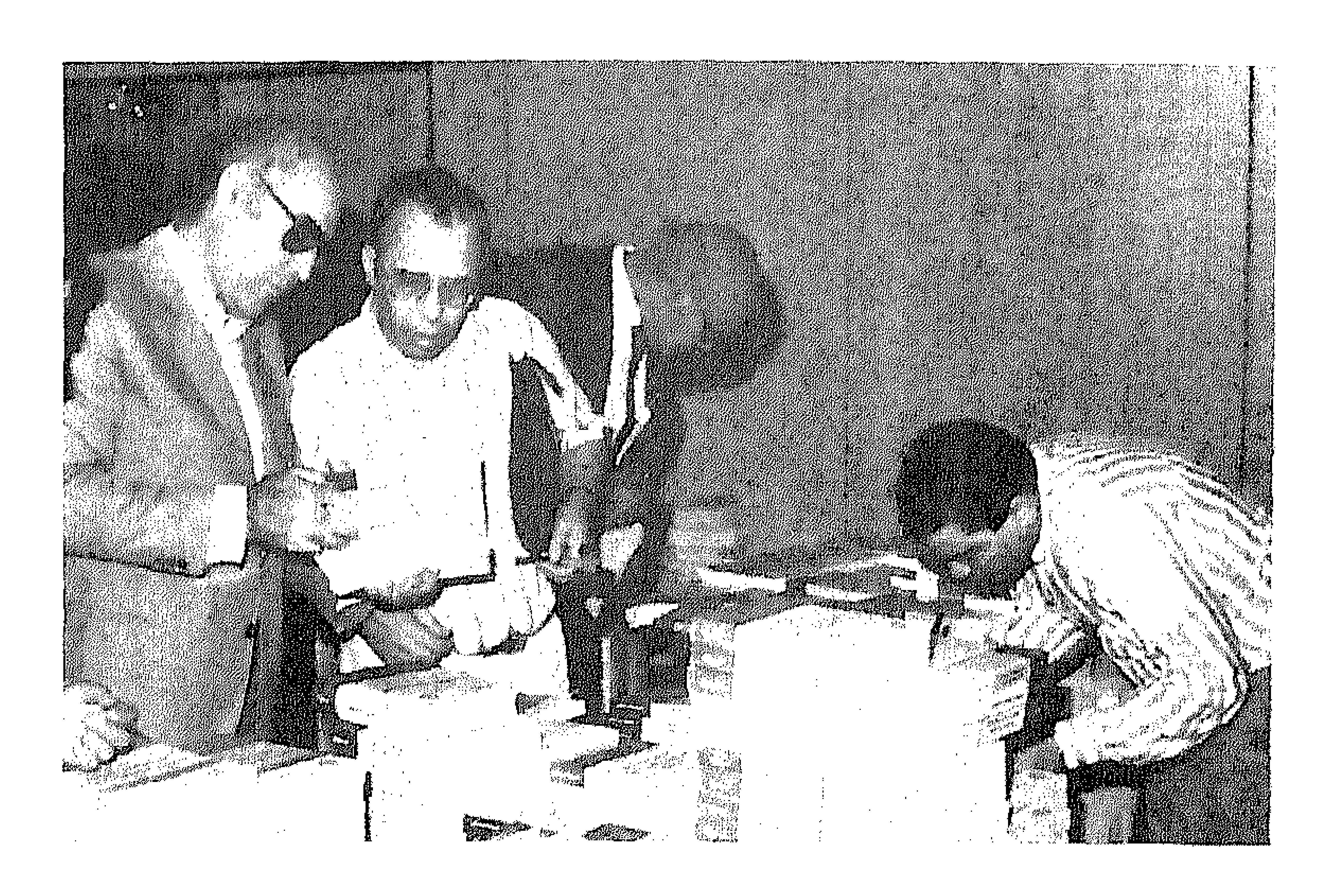
يتحاور مع الكاتب الفلسطيني صالح أبو إصبع، ويظهر في آخر الصورة طيب تيزيني، وهشام بوقمرة.



يلقي بحثه بالقاهرة في ندوة عن المصلح رفاعة رافع الطهطاوي بمناسبة مرور قرنين على ميلاده.



في إحدى الندوات بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، متلقيا الترحيب من الناقد المصري المعروف صلاح فضل.



في إحدى ندوات مركز دراسات الوحدة العربية بالقاهرة. وإلى جانبه عبد القادر زغل.



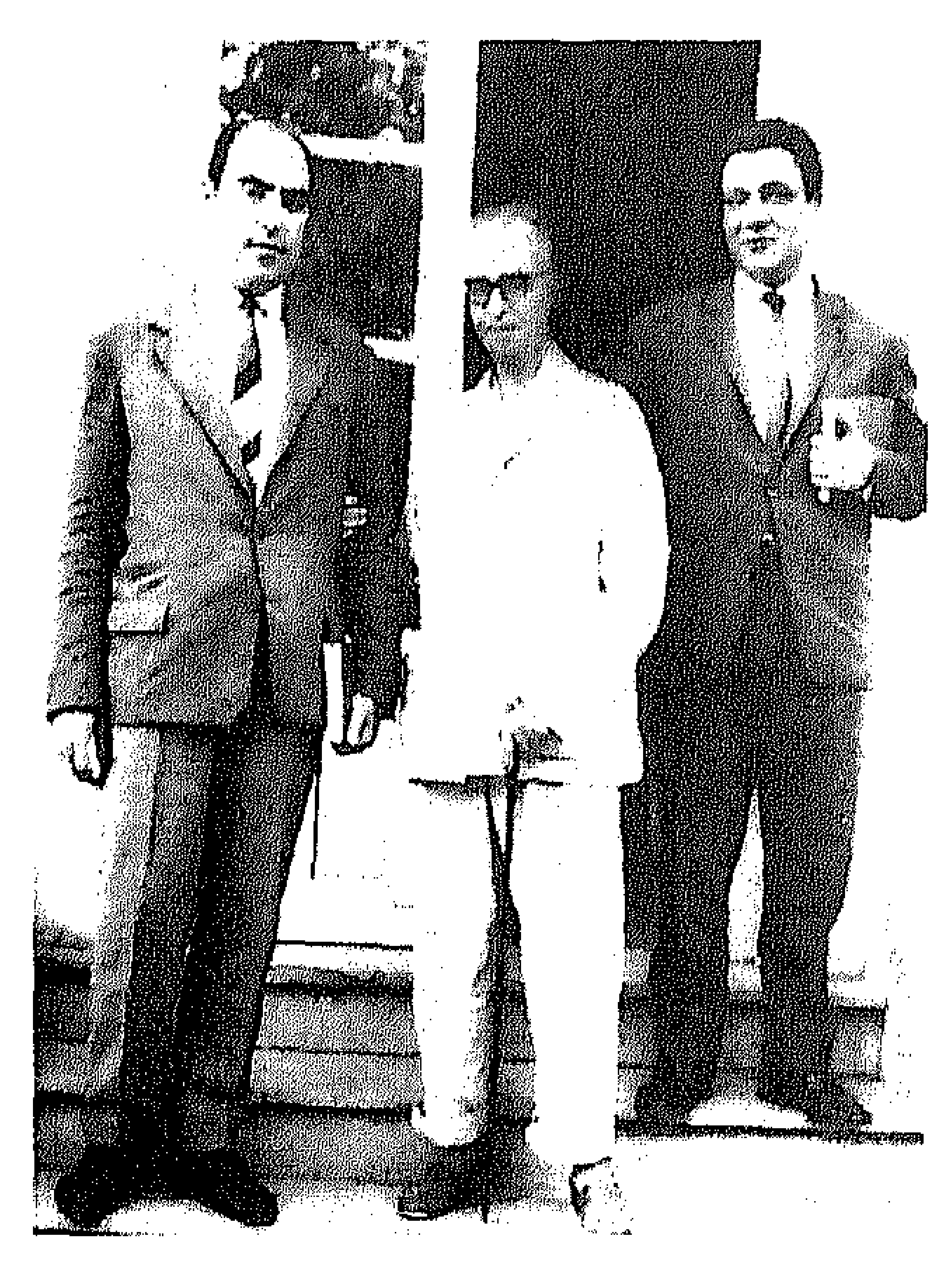
في إحدى الندوات الفكرية بالكويت. ومعه الشاعر الكويتي المعروف خليفة الوقيان.



في ندوة بالمركز الثقافي الألماني بتونس يتحاور مع الكاتب التونسي عز الدين المدني، والشاعر السوري عادل قراشولي. وتظهر في الصورة الإعلامية المعروفة فوزية المزي.



في ضاحية قمرت مع الناقد التونسي حمادي صمود، والناقد المصري عبد المنعم تليمة، ومع الكاتب التونسي العفيف الأخضر.



بصفته مشرفا على الملحق الثقافي لجريدة "العمل" أدى زيارة رفقة رئيس التحرير صلاح الدين بن حميدة إلى الشاعر مصطفى خريف بالمستشفى العسكري بتونس قبيل وفاته.



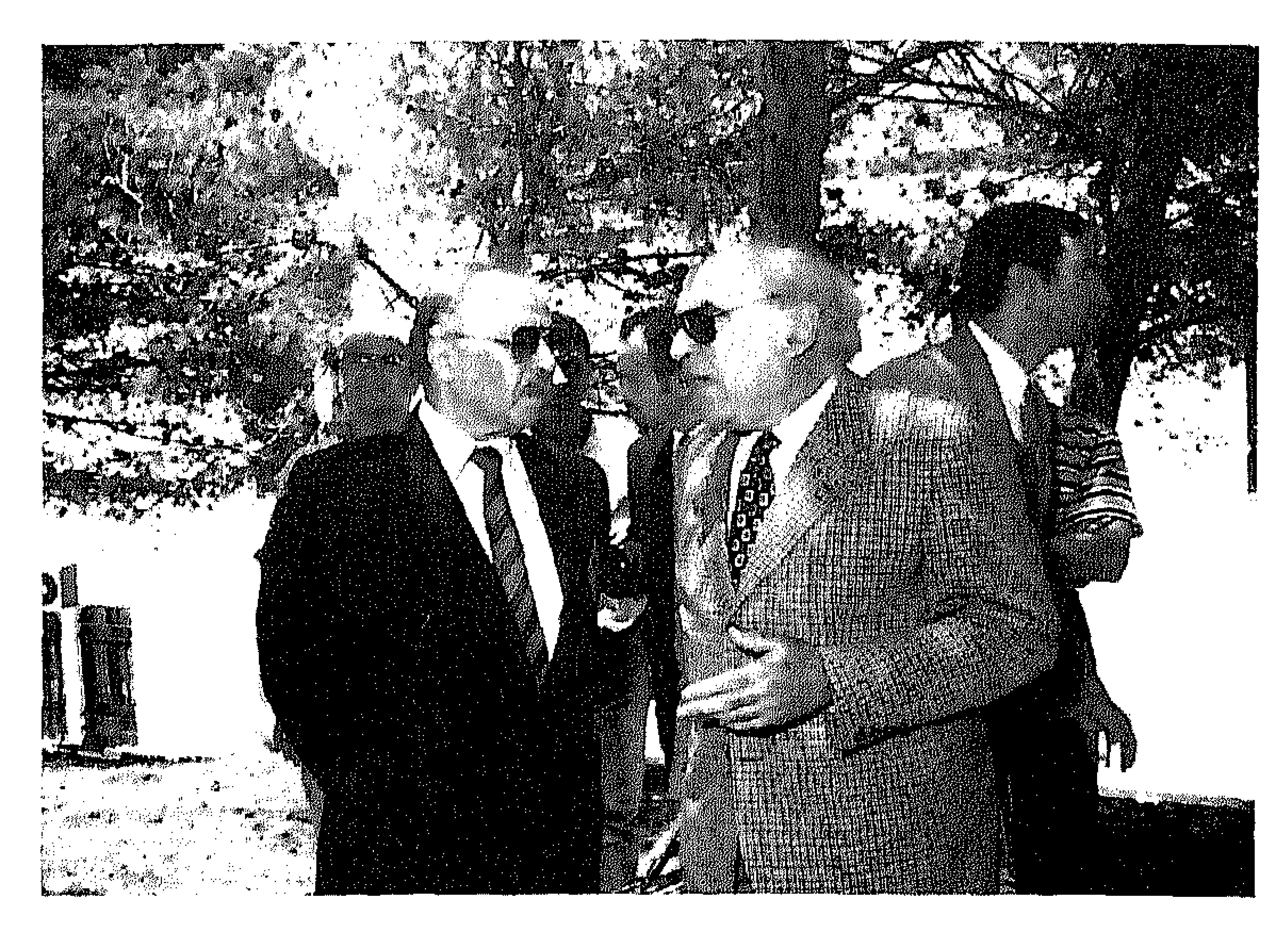
يسلم جائزة الشاعرة الكويتية سعاد الصباح إلى الشاعر التونسي مجدي بن عيسى.



في نادي الطاهر الحداد يتوسط مديرة النادي خديجة كمون. والروائية التونسية آمال مختار. ويرى في الصورة الشاعران عادل معيزي، ومجدي بن عيسى، وكاتبة القصة زهرة الجلاصي.



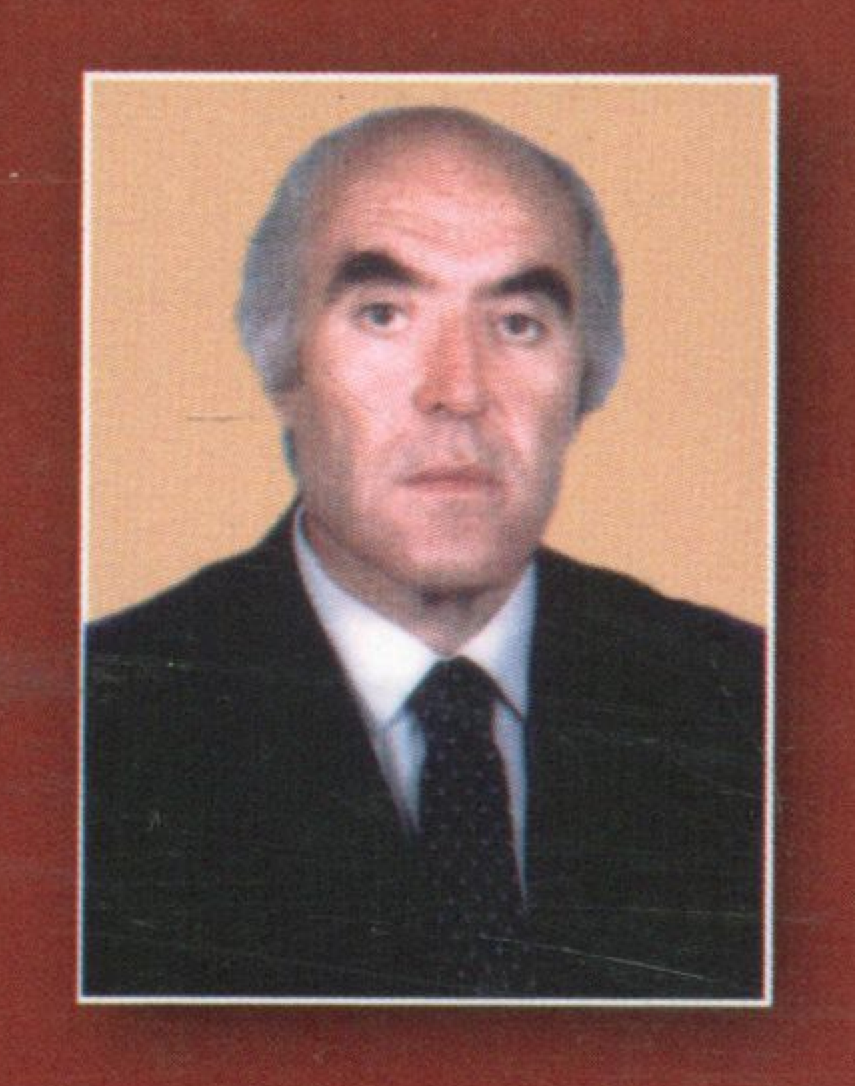
يتحاور مع الجامعي. ورئيس الحكومة الأردنية سابقا عدنان بدران في إحدى ندوات "منتدى الفكر العربي".



مع الأستاذ الشاذلي العيادي في ضيافة الأمير الحسن بن طلال "رئيس منتدى الفكر العربي" بعمان.



في ندوة فكرية بمدينة عمان.



لابد أن أعترف بأنني أنتسب إلى فئة من المثقفين العرب التي ضحت بالحرية في سبيل التخلص من التبعية إلى الخارج، وتحقيق التنمية، والعدالة الاجتماعية فتبين فيما بعد أننا دفعنا ثمنا باهظا مقابل إهمال قضية الحريات، ودون أن نحقق التنمية المستقلة.

وهنا يطرح نفسه السؤال التالي:

كيف التكفير عن الذنب؟

بمواصلة الدفاع عن الحريات العامة إلى آخر رمق.

الحبيب ال

الثمن: 8 د.ت